موسوعة السيدة خديجة

رضى الله عنها

بكر محمد إبراهيم

الناشر

مركز الراية للنشر والاعلام

اسم الكتاب : موسوعة السيدة خديجة

-رضى الله عنها-

بقلـــم : بكر محمد إبراهيم

الطبعة : الأولى ٢٠٠٤

الناشر : مركز الراية للنشر والأعلام

فكرة الكتاب : للناشر أحمد فكرى .

رقم الإيداع : ٢٠٠٤/٩٧٤٠

الترقيم الدولى

I.S.B.N. : 977 - 354 - 044 - 8

المقدمة

الحمد لله الكبير المتعال الذى خلق الخلق وأحصاهم عدداً وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وعلى أزواجه الطيبين الطاهرين وجميع أهله .

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له فى حكمه وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وحبيبه ومصطفاه .

وبعــــد ،،،

فهذا كتاب فى سيرة حياة السيدة خديجة زوج النبى ﷺ ورضى عنها وهى أول زوجة للنبى ﷺ ولم يتزوج عليها حتى رحلت إلى جوار ربها، وكان ﷺ بعد وفاتها يمتدحها ويثنى عليها خيراً حتى كانت السيدة عائشة -رضى الله عنها- تغار منها .

وكان ﷺ يذبح الشاة ويتحرى بها صديقات خديجة ويذكر أنها آمنت به إذ كفر الناس وصدقته إذ كذبه الناس وواسته بمالها إذ حرمه الناس .

وكانت -رضى الله عنها- تشد من أزر النبى ﷺ وتثبته وتسرى عنه وتخفف من أعبائه الجسام وترسل إليه الطعام فى الغار الذى كان يتحنث فيه الليالى ذوات العدد .

وتحملت -رضى الله عنها- مع الرسول ﷺ الأعباء الجسام وأنجبت له زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة والقاسم وعبد الله وهو الذى يسمى بالطاهر والطيب.

وقد مات القاسم وعبد الله فى حياة السيدة خديجة حيث ماتا صغاراً فى سن الحضانة المبكرة عليهما السلام .

وأرسل الله تعالى إليها السلام مع جبريل -عليه السلام- وكذلك بلغ جبريل سلامه إلى خديجة للرسول ﷺ وبشرها الله تعالى على لسان جبريل ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب، والقصب هو اللؤلؤ المسجوف -رضى الله تعالى عنها وأرضاها-.

اللهم اجعل ما كتبناه عن سيدتنا الطاهرة خديجة ، وما نكتبه عن أهل البيت الكرام فى ميزان حسناتنا ونسأله تعالى أن يثيب من أخرج هذا الكتاب ومن قرأه ومن حفظ المودة لأولى القربى من آل محمد ﷺ خير الثواب والجزاء.

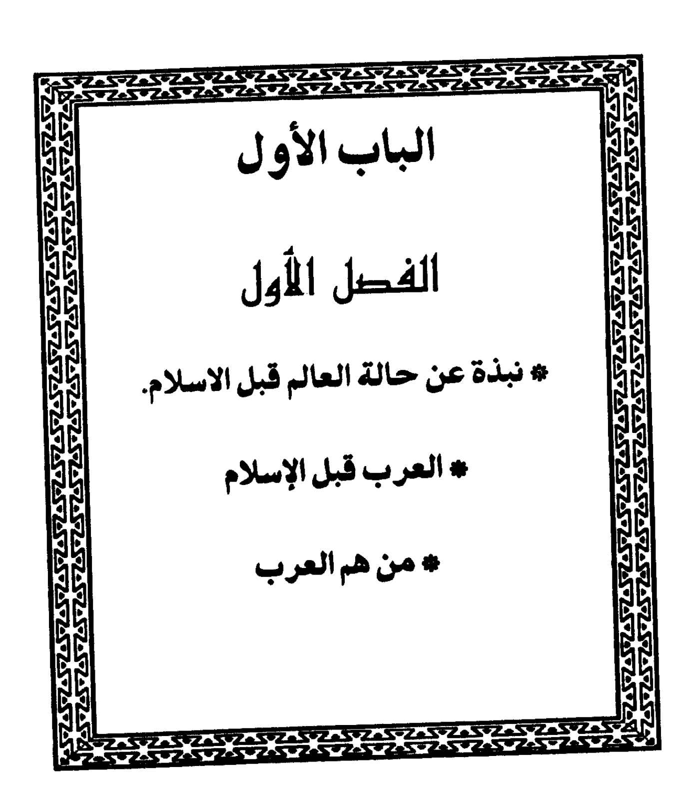
اللهم احشرنا فى زمرة آل بيتك الكرام وأرض اللهم عنهم وعن من أجلهم وعرف مكانتهم وحقوقهم .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المؤلف

بكر محمد إبراهيم

عضو اتحاد الكتاب



الباب الأول

الفصل الأول

* نبذة عن حالة العالم قبل الاسلام.

* العرب قبل الإسلام

* من هم العرب



الفصل الأول :

نبذة عن حالة العالم قبل الإسلام(١)

كانت شبه الجزيرة العربية محصورة بين دولتين كبيرتين، هما دولة الفرس ودولة الروم.

وكانت هاتان الدولتان تتحكمان فى العالم فى ذلك العصر الجاهلى، وكانتا على جانب كبير من الرقى والمدنية، ولكن فيهما فساد كبير من الناحيتين الدينية والاجتماعية.

فبلاد الفرس كانت تنتشر فيها المجوسية وهى عبادة النار، وهم يقولون :

إن الذى يتحكم فى العالم إلهان : إله الخير وإله الشر، وقد انقسموا إلي مذاهب مختلفة، ولكل مذهب أنصار يعادون ويناوئون أنصار المذهب الآخر.

وبلاد الروم كانت تنتشر فيها المسيحية، وقد انقسم المسيحيون إلى طوائف، وكل طائفة تناهض الأخرى وتعاديها، فكان منهم من يقول : إن عيسى ليس له جسد، ولكنه طيف يتبدى للناس، ومنهم من يقول : إن فيه ناحيتين : ناحية إلهية وناحية إنسانية، ومنهم من كان يعبد مريم، وقد سبب هذا الخلاف الدينى بلاء كبيراً وشرا مستطيرا.

وأما من الناحية الاجتماعية، فقد كان الناس فى بلاد الفرس والروم طبقتين، أولاهما : طبقة الحكام والرؤساء وهم عدد قليل ضئيل، وثانيتهما : طبقة المحكومين المرءوسين وهم الغالبية العظمى والكثرة الساحقة، وكانت الأغلبية المحكومة تقاسى الجور والظلام من الأقلية الحاكمة، إذ كانوا يرهقون بالضرائب الفادحة، ويعاملون معاملة العبيد، أو بعبارة أخرى كانوا يزرعون

---

(١) السيرة النبوية – د. محمد عبد المقصود – د. محمد الطيب النجار – الأزهر الشريف.

ويكدحون والرؤساء والحكام يحصدون ويتمتعون، وكانت نتيجة ذلك أن تطلع الشعب فى بلاد الفرس والروم إلى الخلاص من هذا الظلم والطغيان وإلي تحقيق الحرية والإخاء والمساواة.

وقد كانت الحرب بين الفرس والروم سجالا، فأحيانا ينتصر الفرس وينتزعون جزءاً من أملاك الروم. وأحيانا ينتصر الروم فينتزعون جزءاً من أملاك الفرس وقد كان آخر تلك الحروب هى التى أشار الله إليها فى قوله تعالى :

﴿ الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦) ﴾ [الروم].

وقد صدق الله وعده بعد ذلك بنصر المؤمنين، فانتصر الإسلام وانتشر فى بلاد الفرس والروم، وعم نوره العالمين.

العرب قبل الإسلام

حالتهم الاجتماعية والدينية

و صف بلاد العرب :

تقع بلاد العرب فى الجنوب الغربي من قارة آسيا ويحدها من الشمال فلسطين وبادية الشام، ومن الجنوب المحيط الهندى وخليج عدن، ومن الشرق الخليج العربى وبلاد العراق، ومن الغرب البحر الأمر، ومساحتها تبلغ مليونا وسبعمائة ألف كيلو متر مربع.

وهذه البلاد الواسعة المساحة المترامية الأطراف يحيط بها الماء من ثلاث جهات، وهى : الشرق والجنوب والغرب، ولذلك سميت شبه الجزيرة العربية وهى بلاد صحراوية مجدبة فى أغلب أجزائها، ليس بها من الأماكن الخصبة إلا بلاد اليمن، وبعض الوديان الواقعة فى نجد والحجاز وهى وديان قليلة لا تسد حاجة السكان.

وقد وجدت قديما فى بلاد اليمن بعض الممالك، مثل مملكة «سبأ» ومملكة «حمير» ولكن النظام القبلى كان سائداً فى سائر الأرجاء من شبه الجزيرة العربية.

من هم العرب ؟

العرب أمة سامية ترجع فى نسبها الأول إلى «سام بن نوح» - عليه السلام- وقد سموا عربا لأنهم لم يزالوا معروفين بين الأمم بالإعراب وهو البيان فى الكلام والفصاحة فى المنطق، وقيل سموا عربا بالنسبة إلى يعرب بن قطحان جد العرب العاربة فإنه أول من نطق باللغة الفصحى وأخذها عنه أهل اليمن.

وقد قسم المؤرخون العرب إلى ثلاثة أقسام :

١- عرب بائدة.

٢- عرب عاربة.

٣- عرب مستعربة

فالعرب البائدة : هم الذين بادوا أى محيت آثارهم ولم يصلنا من أخبارهم إلا النزر اليسير، ومنهم عاد وثمود، وقد ذكرت قصتهم فى القرآن الكريم ولكنها مجملة ليس فيها تفصيل شامل.

والعرب العاربة : وهم الذين جاءوا على أثر العرب البائدة ويرجعون فى نسبهم إلى يعرب بن قطحان، وينتمون إلى سام بن نوح - عليه السلام- .

وأما العرب المستعربة : فيرجعون فى نسبهم إلى إسماعيل -عليه السلام- وهم عرب من جهة الأمهات لا من جهة الآباء، لأن أباهم إسماعيل غير عربى ولكنه تزوج من قبيلة جرهم العربية فسمى أبناؤه عربا مستعربة، وقد نشأوا فى مكة ومنها انتقلوا إلى شبه الجزيرة العربية.

حالتهم الاجتماعية والدينية

١- الحالة الاجتماعية :

الحالة الاجتماعية هى حالة المجتمع من ناحية العلاقات القائمة بين أفراده.

وسنذكر تلك العلاقات وبخاصة علاقة الرجل بالمرأة، لأن الرجال فى الأمة شطرها، والنساء شطرها الآخر، ولأن الرجل والمرأة أساس الأسرة وأساس الأمم والشعوب.

ولقد كانت العلاقة بين الرجل والمرأة فى الجاهلية علاقة محبة واحترام إلى حد كبير، فالرجل كان يحب المرأة ويحترمها، وذلك أنه يتحدث عنها باهتمام فى أشعاره وخطبه ويذكرها دائما بما يدل على التعظيم والإجلال، فكان يقول لها : يا أم فلان بدل أن يذكرها باسمها تكريما لها وصونا لكرامتها وكان يسميها ربة البيت أى صاحبة البيت، وكان يستشير ابنته إذا أراد أن يزوجها فلا يرغمها على الزواج بمن تكره بل ينفذ رغبتها كما تحب وتريد.

ومن ذلك ما كان من أوس بن حارثة الطائى فلقد جاءه الحارث ابن عوف المرى خاطباً إحدى بناته فاستشار الكبرى والوسطى فرفضتا فاستشار الصغرى فرضيت فزوجها.

وكان الرجل يرتبط بالمرأة بعقد زواج بعد رضائها ورضاء أوليائها وبعد أن يتفقوا على مهر معين، وكانوا يعددون الزوجات، ولم يكن هناك حد معروف لعددهن، وكانوا يطلقون، وإذا أراد الرجل أن يطلق زوجته يقول لها : الحقى بأهلك، أو ما يماثل ذلك، وفى بعض الأحيان يكون للمرأة الحق فى أن تطلق نفسها، وطلاق المرأة كان يعرف بأنها تحول باب بيتها المصنوع من الشعر أو

الوبر أو الجلد إلى عكس جهتها الأصلية، ولكن الغالبية من العرب كانت تجعل حق الطلاق للرجل.

وكانت توجد بين العرب عادة «وأد البنات» ولكنها لم تكن منتشرة إلا فى القبائل الوضيعة، وكانوا يفعلون ذلك خشية الفقر أو العار، وفى هذا يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) ﴾ [النحل].

ويقول تعالى : ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١) ﴾ [الإسراء].

ويقول تعالى: ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ (٩) ﴾ [التكوير].

وكان بعض العقلاء من العرب لا يرتضى هذا العمل القبيح وهو وأد البنات فكان يجىء إلى الرجل الذي يريد قتل ابنته ويقول له : لا تقتلها أنا أكفيك مئونتها. وكان صعصعة «جد الفرزدق» يشترى البنت ممن يريد وأدها خشية الإملاق فأنقذ عدداً كبيراً منهن فى أيام الجاهلية.

أما علاقة الرجل بأبنائه فكانت علاقة محبة. وهذا أمر طبيعى بين الأب وأبنائه إلا أن العربى بصفة خاصة كان يعتز بأبنائه الذكور «لأنهم القوة التى تشد أزره، وتجعل الغير يخشاه ولا يستهين به».

وعلاقة الرجل باخوته كانت علاقة تضامن وتعاون. إذ كان الأخ يتضامن مع أخيه ولو كان على الباطل فكانوا يقولون : «انصر أخاك ظالما أو مظلوما».

بمعنى : كن مع أخيك ولو كان ظالما وساعده ضد الغير ولو كان الغير مظلوماً.

وأما علاقة القبيلة بالقبيلة الأخرى فقد كانت فى الغالب علاقة كراهية وعداوة شديدة، إذ كانت كل قبيلة تحب أن تتميز عن غيرها. وتريد أن تكون أكثر مالاً وأعظم جاهاً وسلطاناً من القبائل الأخرى، وقد أدى ذلك إلي قيام المنازعات والمشاحنات بينهم فكانت حياتهم كلها فى حرب وقتال.

وبذلك يتضح لنا أن العلاقة بين أفراد القبيلة الواحدة كانت علاقة تضامن وتعاون، أما العلاقة بين كل قبيلة وأخرى فكانت علاقة عداوة وخصام وذلك مما جعل الأمة العربية مفككة الأوصال، مهددة بالفناء والزوال، لولا أن تداركها الله سبحانه وتعالى بالإسلام.

علوم العرب ومعارفهم :

إذا نظرنا إلى العرب فى العصر الجاهلى فإننا نجد التعليم فيهم يكاد يكون معدوما، ولم يكن يعرف القراءة والكتابة منهم إلا عدد قليل، إلى درجة أننا نستطيع أن نقول عنهم : إنهم قوم أميون.

إلا أنهم كانوا يعرفون الأشياء التى يحتاجون إليها فى بيئتهم الصحراوية ولهم فى ذلك علوم خاصة بهم.

فكانت لهم تجارب خاصة بالإبل، عرفوا منها ما يطرأ عليها من أمراض كما عرفوا العلاج الناجح لهذه الأمراض.

ومن علومهم التجريبية «علم القيافة» وهو اقتفاء الأثر، فإذا ارتكب شخص جناية تتبعوا آثار أقدامه فى الرمال وكانوا يميزونها عن غيرها ويعرفون صاحبها مهما بعدت المسافة، ولهم فى ذلك مهارة غريبة تفوق الوصف، فكان هؤلاء القوم يقومون مقام إدارة المباحث فى هذه الأيام.

وكانوا يعتمدون فى الطب على التجارب ويعرفون الأمراض التى يتعرض لها سكان الصحراء العربية كبعض أنواع الحميات، ويكاد يكون الكى بالنار هو الدواء الوحيد لجميع الأمراض عندهم، وعلى الجملة فإن العرب كانوا فى علومهم ومعارفهم أقل من الأمم الأخرى التى كانت تجاورهم.

٢- الحالة الدينية :

كانت الديانة المنتشرة فى شبه الجزيرة العربية فى العصر الجاهلى (وهو عصر ما قبل الإسلام) هى الديانة الوثنية، وهى عبادة الأصنام، وقد ذكر الله عز وجل فى كتابه الكريم بعض هذه الأصنام، وبين سفه العرب الذين كانوا يقدسونها، وذلك حيث يقول الله تعالى :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ (٢٣) ﴾ [النجم].

وكان أهل مكة يحجون إلى هذه الأصنام ويقدمون لها القرابين، وكان لا يجوز أن تقتلع أشجار من حماها ولا يصاد صيد، ولا يراق دم آدمى فيها تعظيما لشأنها وتقديسها لها. حتى إن بعض العرب كانوا يضيفون إليها أسماءهم، فكان عبد العزى من الأسماء الشائعة عندهم والمحبوبة لديهم.

وكانت الكعبة فى ذلك العصر الجاهلى مقر الوثنية إذ كانت تحيط بها الأصنام من كل جانب، وكان أعظمها عندهم : «هبل» وهو تمثال من العقيق الأحمر على شكل إنسان مكسور اليد اليمنى، وقد أدركته قريش وهو مكسور اليد اليمنى فصنعت له يداً من ذهب

أما عقيدتهم فى تلك الأصنام فقد كانوا فريقين : فبعضهم كان يعبدها على أنها تشفع لهم عند الله وتقربهم إليه. ويقولون إذا سئلوا عن الخالق الرازق إنه هو الله، وإذا سئلوا عن الأصنام يقولون :

﴿ أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ③ ﴾ [الزمر].

وبعضهم كان يعبدها على أنها هى الآلهة التى تضر وتنفع، وتعطى وتمنع، وتحيى وتميت، وهؤلاء عامتهم وضعفاء العقول منهم.

وقد نشأت عبادة الأصنام على ظهر الأرض منذ عهد «قابيل بن آدم» فقد روى أن وداً، وسواعاً، ويغوث، ويعوق، ونسراً، كانوا قوماً صالحين فى عهد بنى (قابيل بن آدم) ولكنهم ماتوا جميعاً فى شهر واحد، فجزع عليهم أهلوهم. وقال رجل منهم : يا قوم هل أصنع لكم خمسة أصنام على صورهم غير أنى لا أقدر أن أجعل فيهم أرواحاً ؟

قالوا: نعم، فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم ونصبها لهم فكان الرجل يأتى أخاه وعمه وابن عمه فيعظمه ويسعى حوله، ولما تطاول عليهم الزمان نسوا أن هذه التماثيل صور أولئك الذين ماتوا من قديم الزمان، فعبدوهم واتخذوهم آلهة وقد بعث الله سبحانه وتعالى (نوحاً) بعد ذلك فأمرهم بترك عبادة هذه الأصنام فلم يستجيبوا له وكذبوه فأخذهم الطوفان، ونجى الله تعالى نوحاً ومن معه، وما آمن معه إلا القليل.[1]

---

(١) وهناك حديث يقول إن الناس كانوا على التوحيد عشرة قرون من لدن آدم -عليه السلام- وأن هؤلاء الخمسة كانوا فى عهد إدريس -عليه السلام- كما روى ابن كثير وغيره.

وقد كانت عبادة الأصنام فى شبه الجزيرة العربية متأثرة بمثل هذه الظروف، فهى تماثيل قديمة لبعض العظماء الذين اشتهروا بمميزات خاصة دفعت الناس إلى تخليد ذكراهم وبتطاول الزمن نسى الناس أنها تماثيل واعتقدوا أنها تشفع لهم عند الله وتقربهم إلى، بل اعتقد بعضهم أنها آلهة.

وكان هناك قوم فى اليمن يعبدون الشمس وهم الذين ذكر الله قصتهم فى القرآن الكريم مع سليمان – عليه السلام– في قوله تعالى – حكاية عن الهدهد

﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) ﴾ [النمل].

وكان هناك طائفة من العرب يعبدون النار وهم «المجوس» وقد انتقلت إليهم هذه الديانة من الفرس الذين كانوا يجاورونهم.

وكانت هناك ديانات أخرى كاليهودية فى «يثرب» و«خيبر» والمسيحية في الحيرةوغسان.

وهكذا كانت شبه الجزيرة العربية فيها ديانات مختلفة ولكن الغالبية العظمى والاكثرية الساحقة كانت تدين بالوثنية، وقد ظهر فى شبه الجزيرة العربية عدد ضئيل من الناس أدركوا بعقولهم فساد هذه الديانات جميعاً ووصلوا إلى توحيد الله تعالى.

الفصل الثانى

* سيدنا محمد ﷺ نسبه من جهة أبويه

* اشتغاله ﷺ برعى الغنم والتجارة

* تجارته ﷺ فى مال السيدة خديجة وزواجها منها -رضى الله عنها-

الفصل الثانى :

سيدنا محمد ﷺ

نسبه من جهة أبويه

نسبه من جهة أبيه :

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد ابن عدنان.

نسبه من جهة أمه :

أمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، وكلاب هو الجد الخامس للرسول ﷺ من جهة أبيه.

وقد اتفق العلماء على أن عدنان هو الجد العشرون للرسول ﷺ من ذرية سيدنا إسماعيل - عليه السلام -.

ولقد كان النبى ﷺ من سلالة آباء كرام وكلهم سادة وقادة ولهم مكان مكين، ومقام بين العرب عظيم.

وقد تناسل ﷺ من نكاح مشروع، ولم يكن فى أجداده من تلوث بسفاح الجاهلية، بل طهر الله أصوله تطهيراً ثم اصطفاه بعد ذلك من هذه الأصول الطاهرة ليكون رحمة للعالمين وليهدى الناس بنور الحق المبين.

مولده ورضاعه :

خرج عبد الملك بولده عبد الله، يريد تزويجه حتى أتى به وهب بن عبد

مناف بن زهرة، وهو يومئذ سيد بنى زهرة سنا وشرفا، فزوجه ابنته آمنة وهى يومئذ : أفضل امرأة فى قريش نسبا وموضعا، فحملت برسول الله ﷺ ولم يمكث عبد الله مع زوجته إلا وقتا قصيراً، ثم خرج فى قافلة تجارية إلى الشام بعد أن حملت زوجته.

وقد شاء الله أن ترجع القافلة التجارية من الشام ويتخلف عبد الله بالمدينة عند أخواله من بنى عدى بن النجار لشدة مرضه، حيث أدركته الوفاة، وزوجته آمنة فى شهور الحمل الأولى، وكان عمره ثمانية عشر عاماً وقد ترك لزوجته وولدها الجنين ثروة ضئيلة هى خمسة من الجمال وقطيع صغير من الغنم وجارية هى أم أيمن.

ولما تم حمل آمنة ووضعت ولدها، جاء البشير إلى جده عبد المطلب فأخبره بهذا النبأ العظيم، ففرح عبد المطلب بهذه البشرى وأقبل مسروراً وحمل الوليد الصغير بين يديه وذهب إلى الكعبة يباركه، ثم سماه محمداً ولم يكن هذا الاسم شائعاً عند العرب قبل ذلك، ولكن الله ألهم جده بهذه التسمية، وقال : سميته محمداً ليكون محموداً عند الله وعند الناس.

وقد كانت ولادته ﷺ فى فجر يوم الاثنين التاسع من ربيع الأول الموافق لليوم العشرين من شهر ابريل سنة ٥٧١م وهو العام الذى وقع فيه حادث الفيل (ومن العجيب أن المشهور بين الناس أن ميلاد الرسول فى الثانى عشر من شهر ربيع الأول ولكن التحقيق العلمى هو ما ذكرناه).

ونزل ﷺ على يد «الشفاء» أم عبد الرحمن بن عوف فهى قابلته وكانت أمه تحدث أنها لم تجد حين حملت به ما تجد الحوامل من ثقل ولا وحم ولا غير ذلك.

وقد كان المسلمون ولا يزالون، يحتفلون بيوم مولده، فيقرأ كتاب الله، وتتلى

سنة رسوله وتوزع الصدقات على الفقراء والمحتاجين، وفى هذا آية بينة على تعظيمه ومكانته الكبرى من قلوب المسلمين.[1]

رضاعـــه :

أول من أرضعه ﷺ من النساء أمه آمنة ثم ثويبة الأسلمية جارية أبى لهب، وأم أيمن، وأكثرهن إرضاعاً له حليمة السعدية.

وقد جرت عادة العرب أن يلتمسوا المراضع لأولادهم فى البادية بعيداً عن المدن لينشأ الطفل صافى الذهن قوى العزيمة، صحيحى الجسد فجاءت المراضع يطلبن أطفالاً للرضاعة، فكان محمد بن عبد الله من نصيب حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية، واسم زوجها أبو كبشة، وقد كان لرضاع محمد عندهم أثر محمود فى حياتهم، فاتسعت أرزاقهم بفضل الله ورحمته، وكان وجوده خيراً وبركة، وظل معهم مدة تقرب من خمسة أعوام وأسعدها الله بالإسلام هى وزوجها وبنوه بعد ذلك.

شق صدره الشريف :

لقد جرت سنة الله تعالى فى أنبيائه أن يكرمهم بالمعجزات قبل أن يبعثهم إلى الناس حتى تتهيأ العقول بعد ذلك لقبول دعوتهم، وتذكر الروايات التاريخية عن «محمد» ﷺ وهو فى الثالثة من عمره، أنه كان مع أخيه من الرضاع فى بهم، خلف بيوتهم : فعاد أخوه الطفل السعدى يقول لأبيه وأمه : ذلك أخى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه فهما يسوطانه[2]، تقول السيدة حليمة فخرجت أنا وأبوه فوجدناه قائما ممتقعا وجهه،

---

(١) ولكن أهل السنة يرون أن إقامة المولد بدعة لأنه ليس عليها دليل من الشرع وهى تقام كعبادة والأصل فى العبادة أن يكون عليها دليل ولا يجوز اختراع عبادة.

(٢) يقلبانه

فالتزمته والتزمه أبوه فقلنا له مالك يا بنى ؟! قال: جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعانى فشقا بطنى، فالتمسا فيه شيئاً لم أدر ما هو.(١)

وقد خشيت السيدة حليمة على «محمد» أن يكون قد أصابه شىء فأرجعته إلى أمه «آمنة» وقصت عليها ذلك النبأ العجيب، فطمأنتها «آمنة» قائلة : إن لابنى هذا لشأنا، فلم أكن أحس أثناء حمله بشىء مما تجده الحوامل، ولقد رأيت وأنا أحمله كأن نوراً خرج منى فأضاء لى قصور الشام، ثم طلبت إليها أن تعود به إلى البادية مرة ثانية فعادت به حليمة وظل معها حتى قارب الخامسة من عمره.

وقد تكون هذه الحادثة العجيبة إشارة إلى تطهير الرسول ﷺ من الشوائب التى توجد فى نفوس الناس، والسمو به إلى درجة عالية من الطهارات النفسية والخلقية، كما لفت هذا الحادث أنظار العرب إليه وسلط عليه الأضواء حتى يكون ذلك إعداداً لأذهانهم لما سيكون عليه أمر «محمد» وما ينتظره من الدعوة الإلهية.

سفره مع أمه إلى المدينة :

ثم رجعت حليمة «بمحمد» إلى أمه آمنة فى مكة فظل معها حتى بلغ ستة أعوام فأخذته لزيارة أخوال جده من بى عدى بن النجار فى يثرب وأخذت معها أم أيمن وهى الجارية التى خلفها عبدالله من بعده فلما وصلوا إلى يثرب رأى محمد قبر والده فانطبعت فى نفسه معان عميقة ظل يشعر بها طول حياته، حتى لقد تحدث إلى أصحابه بعد الهجرة النبوية عن الذكريات الأليمة التى تركتها هذه الرحلة فى نفسه وهو طفل صغير.

---

(١) ظهر الملكان للناس فى صورة بشر ليعلم الناس بعناية الله تعالى ورعايته لرسوله ﷺ منذ الصغر

وفاة أمه وحضانة أم أيمن له :

وقد مكثت آمنة شهراً فى يثرب وبينما هى عائدة إلى مكة أدركتها الوفاة فى الطريق فماتت بالأبواء وعمرها ثلاثون سنة فرجع محمد مع جاريته أم أيمن إلى مكة محزون القلب لوفاة أمه وهو أحوج ما يكون إلى عطفها وحنانها فى هذه السن الصغيرة. وتولت أم أيمن حضانته بعد وفاة أمه، ولذلك كان ﷺ يقول لها : « أنت أمى بعد أمى». ثم أوصلته إلى جده عبد المطلب الذى يحبه ويكرمه.

كفالة جده عبد المطلب :

كان لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة. وكان بنوه يجلسون حول فراشه ولا يجرؤ أحد أن يجلس عليه إجلالا له واحتراما، وكان محمد يأتى وهو غلام حتى يجلس عليه فيأخذه أعمامه ليؤخروه عن فراش جده فيقول عبد المطلب حين يرى ذلك منهم، دعوا ابنى هذا فوالله إن له لشأنا. ثم يجلسه معه على الفراش ويمسح ظهره بيده ويسره ما كان يصنع.

وكان محمد يرى من جده هذا العطف والحنان. فلا يحس بألم اليتم بل يجد فى هذا الجد خير العوض عن أبيه وأمه، ولكن الزمن لم يمهل عبدالمطلب بعد وفاة آمنة سوى عامين، ثم أدركته المنية، ومحمد لا يزال فى الثامنة من عمره.

كفالة عمه أبى طالب :

لما حضرت الوفاة جده عبد المطلب أوصى به إلى عمه أبى طالب شقيق أبيه واسمه عبد مناف وعبد الكعبة.

ولقد كفله أبو طالب فكان يمثل الأبوة الرحيمة والعمومة الكريمة ولذا كان

لا ينام إلا ومحمد إلى جنبه ويخرج به متى خرج وكان أبو طالب قليل المال كثير الأولاد، ولكن كانت كفالته لمحمد فاتحة خير كثير فوسع الله عليه، وبارك له وأدرك أبو طالب ذلك فازداد حبه لمحمد، وأدرك محمد هذا الحب الذى يغمره به عمه فوجد فى ذلك ما أنساه مرارة اليتم وعوضه خير العوض عن جده وأبيه.

سفره معه إلى الشام وقصة بحيرى الراهب :

وقد سافر عمه أبو طالب فى تجارة إلى الشام ومحمد فى الثانية عشرة من عمره، فلم يطق محمد أن يفارق عمه فأخذه معه إلى الشام وقد قابلهم بالقرب من بصرى راهب يقال له «بحيرى» فأخذ يسأل محمداً عن أشياء عن حاله وعن قومه وهيئته وأموره وأخذ محمد يخبره بخبره فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه فلما فرغ أقبل على عمه أبى طالب يقول له : ما هذا الغلام منك ؟

فقال : «ابنى» فقال له بحيرى :«ما هو بابنك وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا» قال : «فإنه ابن أخى»، قال : «فما فعل أبوه» ؟ قال. «مات وأمه حبلى به» قال : «صدقت» فلما رأى بحيرى فى محمد من أمارات النبوة ما جعله يؤمن بأنه هو النبى المنتظر اذى بشرت به الكتب المقدسة نصح إلى أهله ألا يوغلوا به فى بلاد الشام خوفا عليه من اليهود أن ينالوه بأذى إذا رأوا فيه تلك الأمارات. قال سبحانه وتعالى :

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) ﴾ [البقرة]

وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ

وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) ﴾ [الأعراف].

أحواله قبل البعثة :

نشأت محمد ﷺ نشأة كريمة فكان مطبوعاً على الخير مفطوراً على كريم الصفات ومحاسن الأخلاق، وذلك لأن اله عز وجل قد صنعه على عينه وأدبه فأحسن تأديبه، وقد جاهد ﷺ فى الحياة وكافح فى سبيل العيش.

اشتغاله ﷺ

برعى الغنم والتجارة

لقد اشتغل ﷺ بالتجارة، واشتغل كذلك برعى الغنم وكان يتحدث عن لك بعد البعثة، فيقول : «مابعث الله نبيا إلا راعى غنم» ويقول : «بعث موسى وهو راعى غنم، وبعث داود وهو راعى غنم، وبعثت وأنا أرعى غنم أهلى بأجياد».

وكان فى تجارته مثال الصدق والأمانة فعمت ثقة الناس به، وكان في رعيه الغنم مثال الرحمة والجلد والمثابرة، فكان الناس يتحدثون عنه حديث التقدير والإعجاب، وما كانوا يدرون أن راعى الغنم سيصبح بعد قليل من الزمان راعى شعوب وأمم ومرشد البشرية إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

ولقد حضر محمد ﷺ فى شبابه حرب «الفجار» وهى حرب قامت بين كنانة وقيس وهما قبيلتان من قبائل العرب، وقد انضمت قريش إلى كنانة، وكان محمد ﷺ مع أعمامه يناولهم السهام أحياناً، ويقاتل معهم أحياناً أخرى، ولقد استمرت هذه الحروب أربعة أعوام، ثم انتهت بالصلح بين الفريقين.

ثم شهد محمد ﷺ بعد حرب الفجار حلفا وميثاقا كريما يدعو إلى الدفاع عن الحقوق وحماية المستضعفين وهو حلف «الفضول» وقد عقدته قريش بعد رجوعها من حرب الفجار فى دار «عبدالله بن جدعان» بمكة، وتعاقدت فيه أن تحمى الضعفاء والمظلومين حتى يأمن كل إنسان على ماله وعياله وقد رفع هذا الحلف مكانة قريش بين قبائل العرب، وكان محمد ﷺ وقت حضوره هذا الحلف فى العشرين من عمره، وقد ترك هذا الحلف العظيم فى نفسه أعمق الآثار لأنه حلف إنسانى يدعو إلى الخير ومكارم الأخلاق، وقد تحدث ﷺ عنه بعد البعثة فأثنى عليه وقال : «لقد شاهدت مع عمومتى حلفا فى دار عبد الله بن جدعان ما أود لو أن لى به حمر النعم ولو دعيت به فى الإسلام لأجبت».

وقد اشترك «محمد» ﷺ في بناء البيت الحرام وهو في الخامسة والثلاثين من عمره. وكانت جدرانه قد تصدعت فهدمته قريش لتبنيه من جديد، فكان رسول الله ﷺ فيمن يحملون الحجارة.

ولما أرادوا وضع الحجر الأسود في موضعه، اختلف أشرافهم فيمن يضعه ويحوز هذا الشرف العظيم، وتنافسوا في ذلك كادت تنشب بينهم نار الحرب، فقال أبو أمية بن المغيرة المخرومى، وكان كبيراً فيهم : «يا قوم لا تختلفوا وحكموا بينكم من ترضون بحكمه» .

فقالوا : نكل الأمر لأول داخل علينا، فكان هذا الداخل هو «محمد» ﷺ فاطمأن الجميع لما يعهدون فيه من الأمانة ورجاحة العقل وصدق الحديث، وقالوا: «هذا الأمين رضيناه حكما بيننا» فلما عرضوا عليه الأمر بسط رداءه ووضع الحجر فيه.

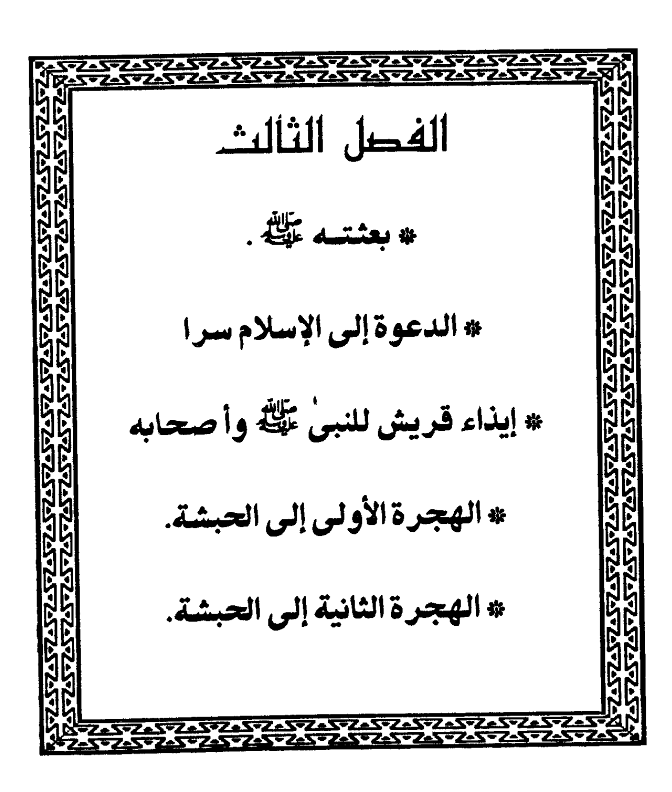
ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب وأمرهم برفعه حتى انتهى إلى موضعه فأخذه بيده الكريمة ووضعه فيه، وهكذا انتهت مشكلة كبرى كادت تودى بقريش لولا حكمة «محمد بن عبد الله» وبعد نظره وسداد رأيه، وعلى هذا النحو الكريم كانت أحوال «محمد» ﷺ قبل البعثة النبوية.

تجارتـه ﷺ فى مال السيدة خديجة

وزواجه بها -رضى الله عنها-

كانت السيدة «خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قُصى» امرأة حازمة شريفة غنية من أوساط قريش نسبا وأعظمهم شرفا، وقد أراد الزواج منها كثيرون بعد موت زوجها الثانى فلم تقبل.

وقد بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه، فعرضت عليه أن يخرج فى تجارة لها إلى الشام، وتعطيه أفضل مما تعطى غيره من التجار مع غلام لها يقال له : «ميسرة» فقبل رسول الله ﷺ، وخرج مع غلامها ميسرة حتى نزل الشام وربحت التجارة ربحا عظيما، وظهرت له بركات قصها (ميسرة على سيدته بعد عودتهما، فأحبت السيدة خديجة محمداً حبا جماً وأرسلت إلى عمها (عمرو بن أسد) ليزوجها، وذهب «محمد» مع عمومته، وخطبها من عمها بواسطة عمه «أبى طالب» وكان فى الخامسة والعشرين من عمره بينما كانت خديجة فى الأربعين.



الفصل الثالث

* بعثته ﷺ .
* الدعوة إلى الإسلام سرا
* إيذاء قريش للنبى ﷺ وأصحابه
* الهجرة الأولى إلى الحبشة.
* الهجرة الثانية إلى الحبشة.



الفصل الثالث :

بعثته ﷺ

أرسل الله تعالى النبى محمداً ﷺ إلى الناس كافة، قال الله تعالى :-

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢٨) ﴾ [سبأ].

وقال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً (١) ﴾ [الفرقان].

وقد وردت البشارة به فى التوراة والإنجيل، قال سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٦) ﴾ [الصف].

فعيسى عليه السلام بشر برسالة محمد ﷺ. وأن شريعته باقية إلى قيام الساعة ولا يأتى بعده نبى ولا رسول.

بدء الوحى :

لم ينزل الوحى على رسول الله ﷺ فجأة ولكن سبقته مقدمات مهدت لنزوله وهيأت الرسول ﷺ لذلك الشرف العظيم، وهو شرف الرسالة، والتبليغ عن الله عز وجل، وأول هذه المقدمات الرؤيا الصادقة .

فكان - عليه الصلاة والسلام-، لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، أى وقعت كما يراها فى المنام، ليس فيها أوهام ولا أضغاث أحلام ثم حببت إليه

الخلوة والانقطاع عن الناس، فكان يخلو (بغار حراء) ويتعبد فيه الليالى ذوات العدد، ويحمل معه الطعام والماء، فإذا فرغ رجع إلى السيدة خديجة. فحمل ما يحتاجه من الزاد، ثم ينطلق إلى الغار ليتعبد وهذه العبادة قيل : إنها كانت على دين إبراهيم، وقيل : كانت بالتأمل والتفكر فى هذا الكون العجيب وما يحيط به من أسرار دقيقة تدل على وجود إله قدير،.

قال تعالى ﴿ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جعل لكُم مِّن أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ومن الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يذْرَؤُكُمْ فِيـــه لَيْس كَمِثْلِه شَيْءٌ وَهُو السَّمِيعُ الْبَصِيـــرُ (١١) ﴾ [الشورى].

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠) ﴾ [آل عمران].

ولما بلغ محمد ﷺ أربعين سنة جاءه الوحى وهو جبريل وذلك فى يوم الإثنين السابع عشر من شهر رمضان فى غار حراء، فضمه ضمة شديدة حتى بلغ منه الجهد وقال له : اقرأ، فقال رسول الله ﷺ (ما أنا بقارىء أى لا أعرف القراءة لأنى أمى لا أقرأ ولا أكتب،

وقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنـــت تتْلُو من قَبْلِه مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِيـــنكَ إذًا لأَرْتَاب الْمُبْطِلُونَ (٤٨) ﴾ [العنكبوت].

فكرر (جبريل) هذا الأمر مرتين ويجيبه الرسول ﷺ بنفس الجواب ثم قال له :

﴿ اقْرأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنـــسَانَ منْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وربُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذي علَّم بالْقلم (٤) علَّم الإِنـــسان ما لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾ [العلق]

وقد رجع رسول الله ﷺ عقب هذا الحادث العجيب : يرتجف فؤاده ودخل على زوجته خديجة، فقال : زملونى فزملوه حتى ذهب عنه الروع ثم أخبر زوجته السيدة خديجة بما وقع له فى غار حراء وقال لها: «لقد خشيت على نفسى فطمأنته السيدة خديجة، وبينت له أن وراء هذا الحادث خيراً كثيراً فقالت له : (والله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضعيف وتعين على نوائب الحق).

ثم انطلقت به خديجة إلى ابن عمها (ورقة بن نوفل) وكان عنده علم بالكتب السماوية : فقالت له خديجة : يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك، تقصد النبى ﷺ ، فقال (ورقة) : يا ابن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ فلما علم من (محمد) ﷺ خبر ما رأى. أدرك أن هذا هو الوحى الذى كان ينزل على الأنبياء من قبل. فبشر (محمدا) ﷺ بأنه سيكون نبى هذه الأمة، وتمنى ورقة أن يمتد به العمر حتى تتحقق هذه الرسالة لمحمد ويأمره ربه بتبليغ الدعوة ليكون من أنصاره وأعوانه.

وقد توفى (ورقة) قبل أن تتحقق أمنيته ومكث الوحى مدة من الزمن لا ينزل على رسول الله ﷺ .

فترة تخلف الوحى :

اختلف العلماء فى المدة التى تخلف فيها الوحى عن رسول الله ﷺ بعد أن نزل عليه أول مرة فى غار حراء وأرجح أقوالهم إنها أربعون يوما ولقد مرت هذه الأيام الأربعون على الرسول ﷺ وكأنها أربعون سنة، ولا عجب فى ذلك، فقد اشتد به الشوق لنزول الوحى عليه، وخاف أن يكون الله قد حرمه من هذه النعمة الكبرى، وهى اختياره رسولا بينه وبين الناس، لكن الله تعالى : رحم محمداً ﷺ من هذه الحيرة الأليمة، فعاد إليه الوحى ونزل عليه قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧ ﴾ [المدثر].

الدعوة إلى الإسلام سرا

وبعد أن نزلت سورة المدثر أخذ رسول الله ﷺ يدعو الناس امتثالا لأمر ربه، ولكنه بدأ سرا بين أهله وعشيرته الأقربين حوالى ثلاث سنين إلي أن أمره الله باظهار الدعوة بعد ذلك.

إيذاء قريش للنبى وأصحابه

فزعت قريش لهذه الدعوة الجديدة، وهالها الأمر إذ كانت ترى فيها الخطر الداهم الذى يهدد كيانها المادى والأدبى فلقد كانت الكعبة مركز عبادة الأصنام وكانت محج العرب ومورد ثروتهم.

وكان زعماء قريش يستمدون مجدهم وفخارهم وعزهم وعظمتهم على سائر الناس من صلتهم بالبيت الحرام، وقيامهم على حراسة الأصنام وسقاية الحجاج كما كانوا يعتبرونها مورد رزق وينبوع ثروة، بالتجارة التى يحترفونها. فانتصار «محمد» ﷺ معناه ضياع سلطانهم الأدبى والمادى، وهو أعز ما يعتمدون عليه فى حياتهم. لذلك عظم الأمر واشتد، وأخذوا يفكرون فى حزم وجدٍ فى أمر محمد ﷺ بعد أن نال من أصنامهم جميعا فعلوا على إعاقة الدعوة الإسلامية باضطهاد صاحبها ومن اتبعه.

إيذاؤهم للرسول ﷺ :

روى عن طارق المحاربى أنه قال : رأيت رسول الله ﷺ فى السوق يقول: «أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»، ورجل خلفه يرميه بالحجارة قد

ثم قالوا : فما هو ؟ ففكر قليلا ثم قال : ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه فرق بين الرجل وأهله وولده. فاهتز النادى فرحا بهذا الرأى الذى سيفرق بين محمد وعشيرته، وسيباعد بينه وبين الناس، وأنزل الله رداً عليه فى آيات بينات مخاطبات الرسول ﷺ .

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) ﴾ [المدثر].

وقال تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) ﴾ [الأنعام].

وروى أن قريشا قالت للنبى ﷺ ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهبا ونؤمن بك. فدعا ربه، فأتاه جبريل فقال له : إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك. إن شئت أصبح الصفا لهم ذهبا، فمن كفر منهم بعد ذلك أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب الرحمة والتوبة. قال ﷺ : «بل التوبة والرحمة».

الهجرة الأولى إلى الحبشة

السنة الخامسة من البعثة ٦١٥م

عز على النبى ﷺ أن يرى أتباعه يتعرض بعضهم للسخرية والازدراء وبعضهم للتعذيب والاضطهاد فأشار ﷺ على أصحابه فى السنة الخامسة من البعثة أن يتفرقوا فى الأرض فرارا بدينهم فسألوه أين نذهب ؟ فأشار إلى الحبشة المسيحية فإن فيها ملكا لا يُظلم أحد عنده، فخرج بعض المسلمين إليها مخافة الفتنة وفرارا إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة فى الإسلام.

لقد خرج من مكة مهاجرا أحد عشر رجلا وأربع نسوة منهم : عثمان بن عفان وزوجته السيدة رقية ابنة النبى ﷺ، وعبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن مظعون، والزبير بن العوام، وعبدالله بن مسعود خرجوا متسللين سراً ولما وصلوا إلى البحر الأحمر ركبوا سفينة أوصلتهم إلى الحبشة فأقاموا فى خير جوار من النجاشى وبعد ثلاثة أشهر رجعوا إلى مكة، لأن الإقامة لم تتيسر لهم، فعددهم قليل، ومع بعضهم نساؤهم كما بلغ مسامعهم أن المسلمين بمكة أصبحوا بمأمن من أذى قريش بعد إسلام حمزة وعمر.

آثار الهجرة الأولى :

١- أقنعت المشركين أن أتباع محمد ﷺ يقابلون الصعاب بصدر رحب من أجل دينهم، ويفضلون أن يلحقهم كل أنواع العناء فى سبيل الله ورسوله.

٢- كانت مثالا باهرا فى التضحية.

٣- مهدت لفكرة الهجرة الكبرى إلى المدينة.

أدمى عقبه وقال : لا تطيعوه فإنه كذاب. فقلت من هذا ؟ قالوا : محمد وعمه «أبو لهب».

أما امرأته «أم جميل» بنت حرب أخت أبى سفيان، فكان أيضا فى غاية العداوة لرسول الله ﷺ وكثيرا ما كانت تضع الشوك فى طريقه، وتلقي بالقاذورات النجسة أمام بيته، ولم تترك عملا فيه إيذاء للرسول ﷺ إلا فعلته - وحتى لم تكتف بهذا الإيذاء العملى بل كانت تسب الرسول ﷺ وتذمه، وتوقع العداوة بينه وبين الناس، لعنها الله :

وأنزل فيها قوله تعالى : ﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾ ﴾ [المسد].

أما (أبو جهل) لعنه الله - فكثيرا ما أساء إلى الرسول ﷺ وقد ألقى عيه مرة أثناء صلاته شاة مذبوحة، فتحمل الأذي وذهب إلى ابنته (فاطمة) رضى الله عنها فأزالت عنه النجاسة والأقذار، ونهى الرسول ﷺ عن الصلاة فى البيت الحرام ، فلما لم ينته، تعرض له بالمنع فقابله الرسول بالشدة، وهدده، فقال: أتهددونى وأنا أكثر أهل الوادى ناديا ومنزلا ؟

فرد الله تعالى عليه تهديدا له ووعيدا بقوله : ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴿١٩﴾ ﴾ [العلق].

وكان «عقبة بن أبى معيط» يجاور رسول الله ﷺ فى منزله، ومما صنعه ذلك الشقى : ما رواه البخارى فى صحيحه قال : بينما النبى يصلى فى الكعبة إذا أقبل «عقبة بن أبى معيط» فوضع ثوبه فى عنق رسول الله ﷺ فخنقه خنقا شديدا فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه، ودفعه عن النبى ﷺ وقال :

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) ﴾ [غافر].

وكان «الأسود بن عبد المطلب» ابن عم «السيدة خديجة» كان هو وحزبه إذا مر عليهم المسلمون يتغامزون بهم سخرية واستهزاء، وفيهم نزل قوله تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) ﴾ [المطففين].

وكان «الوليد بن المغيرة» عم (أبى جهل) من أكابر قريش فى المركز الاجتماعى والمادى، وكان كذلك من أكابر المجرمين الذين كادوا للرسول صلوات الله وسلامه عليه.

سمع القرآن مرة من النبى ﷺ فقال لقومه : «والله لقد سمعت من محمد كلاما، ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو ولا يعلى عليه» فقالت قريش صبأ والله الوليد لتصبأن قريش كلها، فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه، ثم توجه إليه وجلس أمامه حزينا، وكلمه بما حمسه ضد محمد مما جعل الوليد يأتى القوم فى ناديهم ويخاطبهم قائلا : أتزعمون أن محمدا مجنون فهل رأيتموه يهوس ؟

وتقولون : إنه يتكهن فهل رأيتموه يتكهن ؟ وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعرا قط؟ وتزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئا من الكذب؟ فقالوا فى كل ذلك : اللهم لا.

الهجرة الثانية إلى الحبشة

سنة ست من البعثة (٦١٦م)

وجد المسلمون أن موقف قريش لم يتغير بل اشتد وأخذ مظهراً جديداً بلغ فى قسوته وعنفه مبلغا كبيراً، ولذلك فكر كثير ممن هاجر الهجرة الأولى إلى الحبشة أن يعودوا إليها مرة ثانية، كما رغب غيرهم فى مرافقتهم لأن كثرة الداخلين فى الإسلام قد أفزعت قريشاً ودفعتها إلى الاستبداد بالمسلمين، كما أن ما ترامى إليها من أخبار حُسن الضيافة التى لقيها المسلمون فى الحبشة قد أقلق قريشا وجعلها تخشى تدخل الحبشة لحمايتهم، وعند ذلك يعجزون عن القضاء على المسلمين.

وقد رسم المسلمون لأنفسهم خطة السير إلى الحبشة واستعدوا للرحلة إليها لإقامة كريمة ينعمون فيها بعبادة الله وحده آمنين حتى يأتى نصر الله ويعم نور الإسلام ويعودوا إلى أوطانهم. ذلك أملهم بلا شك، نصر وكرامة وعزة وسيادة.

ولقد خرج فى هذه الهجرة الدينية الثانية ثلاثة وثمانون رجلا وإحدى عشرة امرأة، فوصلوا إليها وأقاموا فيها مدة طويلة، ثم عادوا بعد أن أذن الله للرسول بالهجرة إلى المدينة.

موقف قريش من المهاجرين إلى الحبشة :

لم يطمئن أهل مكة إلى خروج المسلمين إلى الحبشة هذه المرة ومن أجل ذلك أرسلوا عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد ومعهما الهدايا النفيسة إلى النجاشى كى يرد المسلمين إلى مكة، فلما دخلا عليه قالا له : «أيا الملك إن نفراً من بنى عمنا نزلوا أرضك، ورغبوا عنا وعن ملتنا وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت، فقد بعثنا أشراف قومهم لتردهم إليهم».

موقف النجاشى :

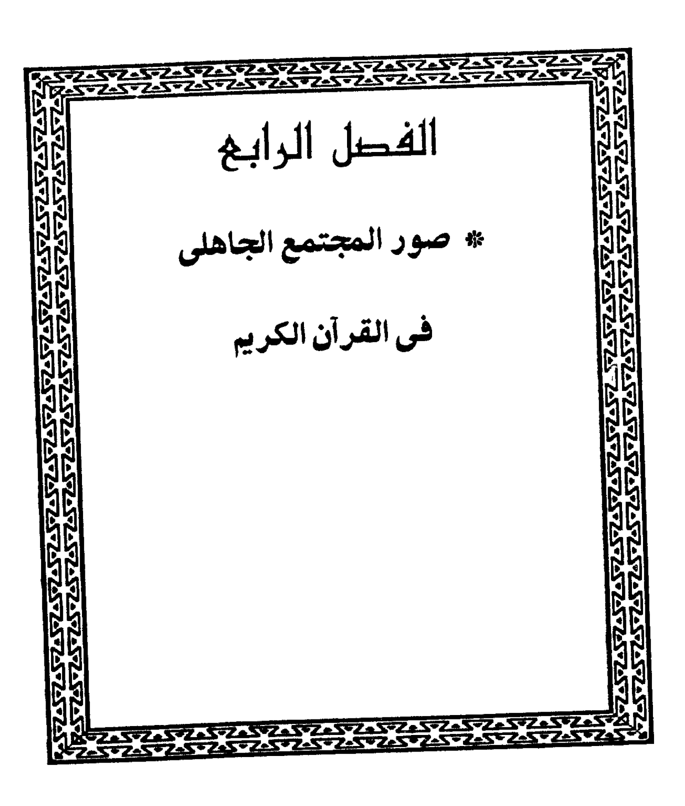
وقد أبى النجاشى أن يرد المسلمين الذين هاجروا إليه حتى يسمع مقالتهم وبعث فى طلبهم، فلما جاءوا سألهم : ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ؟ فرد عليه جعفر بن أبى طالب قائلا : أيها الملك، كنا قوما نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش. ويأكل القوى منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته. فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة وحسن الجوار، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور وأكل مال اليتيم، وأمرنا أن نعبد الله، ولا نشرك به شيئا – وأخذ يذكر له تعاليم الدين الجديد– فصدقنا وآمنا برسالته، فعذبنا قومنا ليردونا إلى عبادة الأصنام، فلما ظلمونا وضيقوا علينا، خرجنا إلى بلادك واخترناك على سواك.

فقال النجاشى : هل معك مما جاء عن الله شىء تقرؤه على ؟ فقال جعفر: نعم : وتلا عليه : «سورة مريم» من أولها إلى قوله تعالى :

﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ﴾ [مريم].

فقال النجاشى : إن هذا هو ما جاء به موسى وسيدنا يسوع المسيح انطلقا فوالله لا أسلمهم أبدا.

ثم عاد عمرو وصاحبه إلى مكة دون أن ينجحا فى مهمتهما. وعاش المسلمون فى جوار النجاشى فى أمن ودعة إلى ما بعد الهجرة الكبرى إلى المدينة.



الفصل الرابع

* صور المجتمع الجاهلى

فى القرآن الكريم

الفصل الرابع :

صورة المجتمع الجاهلى

فى القرآن الكريم(١)

تدل الإشارات الواردة فى القرآن الكريم على أن هذا المجتمع الجاهلى كان مؤسساً على مجموعة من الأعراف والتقاليد وإن تكن ذات قيمة حضارية محدودة، لكنها كانت غير صالحة للاستمرار، حتى ولو لم يظهر الإسلام فى هذه المنطقة ويحدث من التغيير ما أحدث، ذلك لأنها فى جملتها باستثناء الكرم والشجاعة وإباء الضيم كانت تدخل فى تقويم الإنسان أموراً خارجة عن جوهر الذات، وما ليس من الذات قابل أبداً للفناء والاندثار.

من ذلك مثلا هذه المغالاة المفرطة فى الاعتداد بالأحساب والأنساب، والتكاثر الغريب بالأموال والسطوة القبلية وكلها أعراض خارجة عن حدود فضائل النفس يهتمون بها. دون نظر إلى القيمة الحقيقية التى يمتاز بها إنسان عن إنسان، والقيمة الحقيقية للإنسان قيمة داخلية تقوم على ما يتوفر له من فضائل النفس ومقومات بقائها ونموها واستمرار عطائها للحياة.

ولذا أنكر القرآن عليهم ذلك فى قوه سبحانه :

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ ﴾ [التكاثر].

وقد انعكس، هذا الانحراف الفكرى لديهم على تصورهم الغريب لطبيعة النبوة ظانين أنها كأمر شريف لا يصح أن يتولاه إلا العظماء حسب أعرافهم.. أى الأغنياء ذوو العصبيات والأحساب فقالوا- كما تحدث القرآن :

---

(١) السيرة النبوية فى القرآن - د. عبد المقصود مرزوق - م. الأسرة.

﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (31) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (32) ﴾ [الزخرف].

وقد صحح الإسلام هذه النظرة الخاطئة وانتقل بمعيار التقويم من خارج النفس إلى داخلها وجوهرها، وذلك حين اعتبر التقوى أساس التمييز والتفاضل بين الناس وذلك فى قوله تبارك وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13) ﴾ [الحجرات].

كما صحح لهم نظرتهم الخاطئة فى قضية النبوة فقرر لهم أن الغنى وعصبيات القبيلة إذا صلحا معياراً للتفاضل فى بعض أمور الدنيا فإنهما لا يصلحان للتفاضل فى أمور النبوات والرسالات.. لأن للأخيرة معياراً ربانياً آخر ذكره القرآن الكريم فى قوله تبارك وتعالى رداً عليهم :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (32) ﴾ [الزخرف].

ومن الجدير بالملاحظة أن اعتبار التميز المادى مقياساً للتفاضل فى الجاهلية العربية جاء مماثلا لنظيره فى الجاهلية الفرعونية عندما أرسل موسى -عليه السلام- إلى فرعون وملئه فلقيه فرعون بمنطق جاهلى ينظر إلى الإنسان بمعيار خارج عن جوهر الإنسان، وصورت له معاييره الجاهلية أنه خير من

موسى -عليه السلام- لأن له ملك مصر وتجرى من تحته الأنهار بينما لا يملك موسى - عليه السلام- شيئاً من ذلك، وليس بيديه حتى ولا أسورة من ذهب، ولذا قال فرعون : قولته المشهورة التى حكاها القرآن :

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) ﴾ [الزخرف].

ومن سمات الجاهلية التى تحدث عنها القرآن الكريم منكراً على أصحابها استمرارهم عليها: سمتان بارزتان :

أولهما: الخضوع الكامل لحمية الجاهلية ونزعات الغضب الحمقاء وما تصنعه فى الأفراد والجماعات من انحراف فى التفكير والسلوك واندفاع إلى التدميروالعنف.

الأمر الذى ظهر بوضوح فى نشوب الحروب والعداوات بين أصحاب الجاهلية لأتفه الأسباب، ربما من أجل كلمة عابرة، وربما من أجل قبضة من الكلأ يقضمها حيوان أعجم من أرض محمية لقبيلة من القبائل لإنسان من الناس.

وربما من أجل العناد الأجوف الذى لا يدل على شىء سوى فراغ رؤوس أصحابه من اليقين الذى يصنع الاتزان فى التفكير والسلوك.

والثانية من سمات هذه الجاهلية -وما تزال مع الأسف موجودة فى عصرنا وفاشية- وهى القصور التام فى تصور علاقة الإنسان بالكون والله سبحانه خالق هذا الكون.

فأصحاب الجاهلية الأولى، وكل الجاهليات يقيمون الأمور فى دنياهم على أساس العلاقة بين السبب والمسبب، أو بين العلة والمعلول ... غافلين عن الخالق والمدبر الأعظم لهذا الكون، والذى يستطيع وحده –سبحانه– أن يقطع العلاقة بين الأسباب ومسبباتها أو يوجد المعلول من غير علة ... وهذه الغفلة عن الخالق –سبحانه– سمة بارزة من سمات أصحاب التفكير المادى –على اختلاف مستوياته– والتى يعجز أصحابها عن الارتقاء إلى ما وراء معطيات الحس البشرى المحدود.

ولذا أنكر القرآن الكريم أن تستمر هذه الجاهلية فى مجتمع الإسلام فى آيات تصف مواقف كثيرة ومختلفة منها قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤) ﴾ [آل عمران].

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) ﴾ [المائدة].

وقوله تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠) ﴾ [المائدة].

ومنها كذلك قوله تعالى : فى سورة الفتح مشيرا إلى موقف العناد البغيض الأجوف الذى وقفه المشركون من الرسول وصحبه -صلوات الله عليه- يوم الحديبية وذلك فى قوله تعالى :

﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦) ﴾ [الفتح].

وصدق الله .. لقد كان المؤمنون يوم الحديبية أحق بما أنزل الله عليهم من سكينته، لأنهم بالإيمان قد خرجوا من وطأة الجاهلية بحماقاتها الجوفاء التى تمنع - لمجرد العناد- المحلقين المقصرين المسالمين من زيارة بيت الله. أو التى تقيم الحروب أربعين عاماً متوالية ، لأن رجلا رمى ناقة فجرحها على ما هو مشهور فى قصة حرب البسوس.

ولقد استطاع الإسلام أن يمحو آثار هذه الجاهلية من نفوس العرب منذ ظهوره، ويحل محلها قيمه الرفيعة المتسامية التى أتاحت لبلال - رضى الله عنه- ونظرائه من المستضعفين أن يسبقوا الأغنياء وأصحاب الثراء.. واستمر ذلك طوال عصر النبوة والراشدين - رضى الله عنهم -

فلما دخلت السياسة على الدين بعد الفتنة الكبرى إثر مصرع ذى النورين عثمان بن عفان - رضى الله عنه - واستمرت عصر بنى أمية كله.

ولما دخلت الفلسفة على الفكر الإسلامى، وأتاحت الفرصة للتأويل والتحليل والمدارس والنحل.

لما حدث ذلك جاء الاستشراق ليغلب الفكر التجريبى، وليأخذ الناس بعيداً عن نقاء الإيمان .. وينزلق بهم من جديد صوب جاهلية هذا الزمان.

الجاهليون والمرأة :

أما عن المرأة فى هذا المجتمع فكان الجاهلى يستشعر نحوها أمرين :

الأول : الإحساس بالعار والهوان الذى عبر عنه القرآن فى قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) ﴾ [النحل].

والثانى : الإحساس بثقل وطأتها الاقتصادية واعتبارها عبئاً يجب التخلص منه ولو بالقتل كما قرر القرآن فى حديثه عن الموءودة :

﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ (٩) ﴾ [التكوير].

امتهانها فى العلاقة بالرجل :

وقد عرف العرب فى الجاهلية ألواناً من الأنكحة (صور الزواج) ليس بينها إلا واحد فقط جاء على صورة تنكح فيه المرأة بخطبة وولى ومهر.. والباقى وهو الكثرة الغالبة فاسد ممعن فى الفساد. تمتهن فيه المرأة إلى أقصى حدود الامتهان مثل نكاح الاستبضاع، ونكاح التواطؤ، ونكاح البغايا، ونكاح الشغار وغيرها.

روى البخارى فى صحيحه عن عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبى ﷺ ورضى الله عنها أخبرته أن النكاح فى الجاهلية كان على أربعة أنحاء : منها نكاح الناس اليوم، يخطب الرجل إلى الرجل وليته، أو ابنته فيصدقها، ثم ينكحها.

ونكاح آخر : كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها : أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبدا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب.

وإنما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الولد، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع.

ونكاح آخر: يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون علي المرأة كلهم يصيبها فإذا حملت ووضعت ومر عليها ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها تقول لهم : قد عرفتم الذى كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان - تسمى من أحبت باسمه - فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع منه الرجل.

والنكاح الرابع : يجتمع الناس الكثيرون فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها وهن البغايا، كن ينصبن على أبوابهم رايات تكون علماً، فمن أرادهن دخل عليهن فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا لها القافة ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون فالتاطوه به (ألحق بنسبه) ودعى ابنه لا يمتنع من ذلك.

وتمضى أم المؤمنين - رضى الله عنها- فتقول : « فلما بعث محمد ﷺ بالحق هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم».

وثمة ألوان أخرى من النكاح مثل :

«نكاح المقت» الذي يتزوج فيه الرجل زوجة أبيه وقد حرمه القرآن بنص الآية، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا (٢٢) ﴾ [النساء].

ثم نكاح «الخدن» الذى حرم كذلك فى قوله تعالى :

﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٥) ﴾ [النساء].

كما كان من المألوف لديهم استبداد الرجل بأمر المرأة، حتى ليمنعها من أن تتزوج بعده.

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٢٣٢) ﴾ [البقرة].

هذا بالإضافة إلى ما سجله القرآن الكريم من أن بعض ساقطى المروءة من هؤلاء الجاهلين كان يتخذ من الإماء سبيلا إلى الكسب عن طريق البغاء الذى حرمه القرآن بصريح الآية :

﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣) ﴾ [النور].

يضاف إلى ذلك، ما كانت تعامل به من الحرمان من الميراث وكافة حقوق الرجل باعتبارها عالة عليه غير قادرة على الكسب أو الحرب.

كل هذا يعطى لنا دلالة على نوع التحول الإنسانى الهائل الذى أحدثته رسالة صاحب السيرة -صلوات الله وسلامه عليه- فى الانتصاف للأنثى وتكريمها، كما لم يحدث من قبل فى جاهلية العرب أو كل الجاهليات.

موقفهم من المال وما يتصل به :

من حديث القرآن الكريم عن المال تبدو الحالة الاقتصادية لمجتمع الجاهلية قائمة على التجارة فى رحلتى الشتاء والصيف المشهورين -اللتين امتن الله تبارك وتعالى عليهم بها وبما أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف.

قال تعالى : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش].

وقد نشطت هذه التجارة فى رحلتيها نشاطاً ملحوظاً يكفى فى الدلالة عليه أن نعلم أن عير القرشيين التى كانت عائدة من الشام عند غزوة بدر كانت ألفا، وأن قيمة ما كانت تحمله قدرت بخمسين ألف دينار.. وهو مبلغ ضخم إذا قورن بما كانت عليه أموال الناس آنذاك.

ولاشك فى أن هذا النشاط التجارى خلف وراءه رصيداً من الثراء لدى مجموعات غير قليلة، وتكونت بسببه طبقة مترفة عرفت رقة العيش وفنون النعيم إلى حد أن كان واحد منهم هو عبدالله بن جدعان التميمى يشرب الخمر فى كأس من الذهب.

لكن هذا الغنى فى أوله وآخره لم يحرر قلوب أصحابه آنذاك من العبودية

للمال ومن شح النفس الذى يجعل أولئك المترفين اللاهين لا يجدون غضاضة فى أن ينموا ثرواتهم بالربا مستغلين ضعف الضعيف ووطأة الحاجة على المحتاج وذلك ما سجله القرآن الكريم فى عدد من آيات سورة البقرة وآل عمران والنساء، منكراً على أصحابه أشد الإنكار مطالباً إياهم برد ما أخذوه مما لا حق لهم فيه، منذراً من يستمر منهم بحرب من الله ورسوله على نحو ما قال :

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) ﴾ [البقرة].

هو حس غليظ إذن ذلك الذى كان يتحرك به وله المجتمع الجاهلى قبل البعثة المحمدية وحسبك من بشاعة أن يئد الرجل ابنته بيديه خشية العار أو خشية إملاق أو كلاهما على السواء .. أو أن تقوم الحروب أعواماً طوالا من أجل أمر لا يؤبه له فى موازين العقلاء، على ما هو معروف ومشهور.

وقد كان جعفر بن أبى طالب -رضى الله عنه- من أصدق الناس تصويراً لهذه الحالة وذلك فى كلمته التى قالها للنجاشى إبان الهجرة الأولى إلى الحبشة حين قال :

«أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسىء الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف».

وكان لسيطرة المنزع الحسى على أهل الجاهلية العربية أثره غير المحدود فى الإغراق الذى لا نظير له فى عبادة الأصنام إلي حد أنه كان فى جوف الكعبة وفى فنائها ثلاثمائة وستون صنما، وكان فى كل دار من دور مكة صنم يعبدونه.

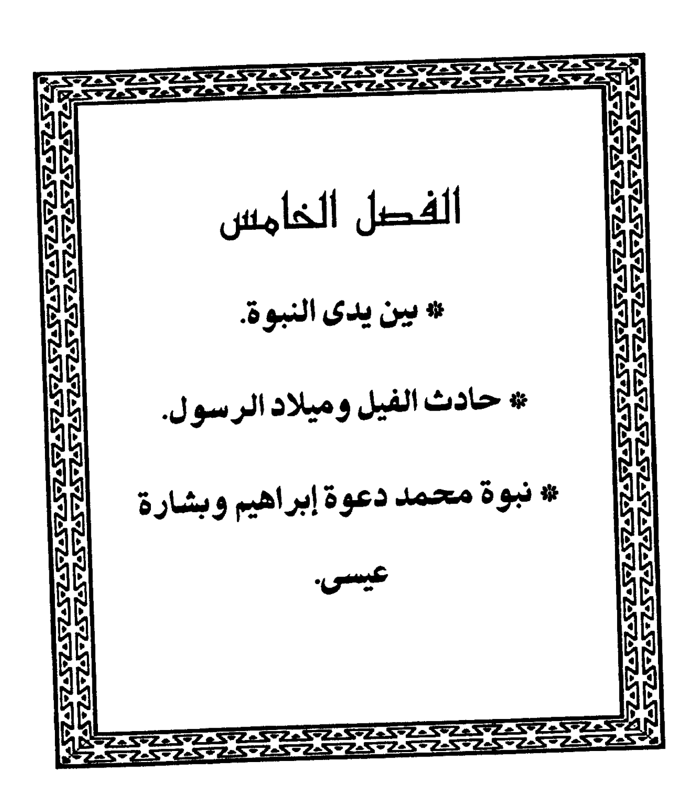
وكما يقول الأستاذ الندوى :

«وهكذا وصلوا- أى أهل الجاهلية - رغم ما طبعوا عليه من الفتوة وخلال المروءة وكثير من الأخلاق العربية الكريمة - وصلوا إلى درجة سخيفة راعنة من الوثنية وعبادة الأصنام، والتمسك بالخرافات والأوهام، وجهل المفاهيم الدينية الصحيحة، والبعد عن الإبراهيمية الحنفية السمحة.. وصلوا درجة لم يصل إليها إلا النادر من الشعوب والأمم.

من أجل هذا كله كان ظهور الإسلام لابد منه.

ومن أجل هذا كله استغرقت الآيات الداعية إلى التوحيد وتصحيح العقيدة ما يقارب ثلثى القرآن الكريم.

كما كانت عملية التغيير التى أخذها النبى -صلوات الله وسلامه عليه- على عاتقه صعبة ومريرة استغرقت أكثر من نصف عمر الرسالة المحمدية منذ بعثته إلى وفاته - صلوات الله وسلامه عليه-، على نحو ما نعرض له فيما يلى.



الفصل الخامس

* بين يدى النبوة.

* حادث الفيل وميلاد الرسول.

* نبوة محمد دعوة إبراهيم وبشارة عيسى.



الفصل الخامس :

بين يدى النبوة

حادث الفيل وميلاد الرسول :

كان حادث الفيل بما اكتنفه من ظروف وما أحاط به من المعجزات دليلا لاشك فيه على أن الله -تبارك وتعالى- يريد للكعبة مستقبلا فى الأرض لا تقوى قوة على هدمه.. وأن لها فى مستقبل الدين السماوية[1] دوراً ليس لغيرها من الشرائع[2]. كما كان إرهاصاً بأن المنطقة على وشك أن تستقبل حدثاً عظيماً، ونقطة لها دلالتها فى تاريخ مولده ﷺ فى العام نفسه الذى حدث فيه هذا الحادث.

وتسجل كتب السيرة حديثا مشهوراً دار بين عبد المطلب جد الرسول ﷺ وسيد قريش وبين «أبرهة» قائد الجيش المغير على مكة، وكان أبرهة قد أصاب لعبد المطلب مائتين من إبله فسعى إلى مقابلته.. وظن أبرهة أنه جاء ليفاوضه بشأن البيت حتى يعود فلا يهدمه، لكنه حدثه عن الإبل .. فسقط فى عينه بعد ما أكبره وبعد مانزل له عن سريره.. ثم قال له :

(أتكلمنى فى مائتى بعير هى لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك وقد جئت لأهدمه وما تكلمنى بشأنه ؟ فقال عبد المطلب : أما الإبل فهى لى، وأما البيت فله رب يحميه).

وقد فرت قريش إلى الجبال والشعاب تخوفاً ونجاة.. وترقباً لما يصنع أبرهة بالبيت أو ما يصنعه به رب هذا البيت .. وقام عبد المطلب ونفر معه

---

(١) فى الأصل : الأديان السماوية .

(٢) فى الأصل : الأديان.

يمسكون بحلق باب الكعبة يستصرخون رب البيت ويستنصرونه ويروى قوله من الشعر :

لا هـم إن العبد يمنـع رحلـه فامنع رحالك

لا يغلبن صليبهم .... ومحالهم أبداً محالك

إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمر ما بدا لك

وأصبح أبرهة يتجه بجيشه إلى البيت ليهدمه، وهيأ فيله ليتقدم الجيش لكنه برك.. فحاولوا معه وضربوه فما تحرك، فلما حولوا وجهه صوب اليمن قام يهرول.

وعندئذ أرسل الله طيراً كثيرة فى مناقيرها حصوات لا تصيب أحداً من جيش أبرهة إلا أهلكته.

وأصيب أبرهة فى جسده وخرج معهم تساقط أنامله ... حتى وصل صنعاء فمات فيها. هذا الحادث سجله القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥) ﴾ [الفيل].

قلق غامض :

جاء فى سيرة ابن كثير روى الحافظان . البيهقى وأبو نعيم فى «دلائل النبوة» من حديث يونس بن بكير عن يونس بن عمرو عن أبيه عن عمرو بن شرحبيل أن رسول الله ﷺ قال لخديجة : إنى إذا خلوت سمعت نداء، وقد خشيت والله أن يكون لهذا أمر

قالت : معاذ الله ما كان ليفعل ذلك بك، فوالله إنك لتؤدي الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث.

«وكان ﷺ يجد فى نفسه قلقاً غامضا لا يعرف مصدره، ولا يخطر بباله لحظة ما أكرم به من الوحى والرسالة ولا يحلم بذلك فى يوم من الأيام.

هذا المعنى يشير إليه القرآن الكريم فى قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) ﴾ [الشورى].

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ (٨٦) ﴾ [القصص].

نبوة محمد ﷺ دعوة إبراهيم وبشارة عيسى :

روى ابن سعد عن عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر قال : قال رسول الله ﷺ : «أنا دعوة أبى إبراهيم، وبشر بى عيسى بن مريم».

وروى ابن كثير :

عن الإمام أحمد بسنده إلى أبى أمامة -رضى الله عنه- قال : قلت يا رسول الله ما كان بدء أمرك ؟

قال ﷺ : «دعوة أبى إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمى أنه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام».

هذا المعنى مشار إليه فى القرآن فى قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ

الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩)﴾ [البقرة].

فهذه دعوة إبراهيم:

أما بشرى عيسى بن مريم فهى مذكورة فى القرآن فى قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٦)﴾ [الصف].

ذكره ﷺ فى التوراة والإنجيل:

روى ابن كثير عن الإمام أحمد بسنده إلى عطاء بن يسار قال لقيت عبدالله بن عمرو بن العاص فقلت: أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة فقال: أجل والله إنه لموصوف فى التوراة بصفته فى القرآن « يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل، لا فظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ولا يجزى السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويغفر».

وجاء مثله فى طبقات ابن سعد.

وهذا المعنى مشار إليه فى قول الله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ

الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) ﴾ [الأعراف].

وقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) ﴾ [البقرة].

وقوله تعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) ﴾ [الفتح].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) ﴾ [آل عمران].

النبـــي الأمـــي:

كان من حكمة الله -تبارك وتعالى- أن يكون الرسول أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ربما لكون معجزة القرآن على لسانه ﷺ أبلغ دليل على أنها من عند الله.

هذه الأمية قررها القرآن فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) ﴾ [العنكبوت].

وقوله تعالى : وهذا المعنى مشار إليه فى قول الله تبارك وتعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) ﴾ [الأعراف].

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨) ﴾ [الأعراف]

وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢) ﴾ [الجمعة].

النبى اليتيم :

قالم ابن إسحاق ويمثله قال بن سعد : «ثم لم يلبث عبد الله بن عبد المطلب أبو رسول الله ﷺ أن هلك وأم رسول الله ﷺ حامل به».

هذا المعنى يشير إليه القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) ﴾ [الضحى].

بدء الوحى وأول ما نزل من القرآن:

روى البخارى بسنده إلى عائشة -رضى الله عنها- قالت : «أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحى، الرؤيا الصالحة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه -وهو التعبد- الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء فجاءه الملك فقال اقرأ : قال ما أنا بقارىء. قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى فقال اقرأ، قلت : ما أنا بقارىء، قال فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى فقال اقرأ، قلت : ما أنا بقارىء، فأخذنى فغطنى الثالثة، ثم أرسلنى فقال :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) ﴾ [العلق] الحديث.

وهذا ما ذكره القرآن فى سورة العلق :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾ [العلق]

المزمل المدثر - صلوات الله عليه :

وفى حديث البخارى المذكور آنفاً حول بدء الوحى تقول عائشة -رضى الله عنها- «... فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد -رضى الله عنها- فقال : زملونى .. زملونى فزملوه حتى ذهب عنه الروع ...».

هذا الحديث أشار إليه القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ۝٢ ﴾ [المزمل].

كما روى البخارى بسنده إلى جابر بن عبد الله الأنصارى عن النبى ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحى فقال فى حديثه :

«بينما أنا أمشى سمعت صوتا من السماء فرفعت بصرى، فإذا الملك الذي جاءنى بحراء، جالس على كرسى بين السماء والأرض، فرعبت منه فرجعت فقلت : دثرونى ....» الحديث.

وهو ما أشار إليه القرآن فى قوله تبارك وتعالى فى سورة المدثر :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ ﴾ [المدثر].

تحرك شفتيه ﷺ عند الوحى :

روى البخارى فى الصحيح بسنده إلى ابن عباس -رضى الله عنهما- : قال : كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة وكان مما يحرك شفتيه (أى ممن يحرك شفتيه.. الحديث. وكأنه كان يتعجل حفظ ما يوحى إليه.

هذه الحالة مذكورة فى القرآن فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ۝١٩ ﴾ [القيامة].

ويقول ابن عباس -رضى الله عنهما- فى تتمة الحديث وبعد أن فسر الآيات : «فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع، فإذا انطلق جبريل قرأه النبى ﷺ كما قرأه».

أو مخرجي هم ؟:

في البخاري وكتسب السيرة :

أن ورقة بن نوفل لما سمع بما حدث للرسول ﷺ في الغار قال : «والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى، وأن قومك سيكذبونك ويؤذونك ويخرجونك ويقاتلونك». فقال ﷺ متعجباً : «أو مخرجي هم ؟».

هذا الإخراج يصفه القرآن فى قوله -تبارك وتعالى- فى سورة محمد :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ ﴾ [محمد].

وقوله تعالى : ﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ ﴾ [البقرة].

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الممتحنة].

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال].

الجهر بالدعوة :

ثم ابن هشام وابن سعد : «ثم إن الله - عز وجل - أمر رسوله ﷺ أن

يصدع بما جاءه منه وأن ينادى الناس بأمره، وأن يدعو إليه، فكان بين ما أخفى رسوله ﷺ أمره واستتر له إلى أن أمره الله -تعالى- بإظهار دينه ثلاث سنين - فيما بلغنى - من مبعثه».

وروى مثله ابن كثير فيما نقله عن الإمام أحمد بسنده إلى ابن عباس -رضى الله عنهما- قال : لما أنزل الله

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (٢١٤) ﴾ [الشعراء]

أتى النبى ﷺ الصفا فصعد عليه ثم نادى «يا صباحاه» . فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه ورجل يبعث رسوله، فقال رسول الله ﷺ :

«يا بنى عبد المطلب، يا بنى فهر، يا بنى كعب : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادى تريد أن تغير عليكم صدقتمونى؟

قالوا: نعم.

قال : « فإنى نذير لكم بين يدي عذاب شديد».

هذا المعنى يعبر عنه القرآن فى قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) ﴾ [الحجر].

وفى قوله تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) ﴾ [الحجر].

وفى قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (٢١٤) ﴾ [الشعراء].

وفى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) ﴾ [المدثر].

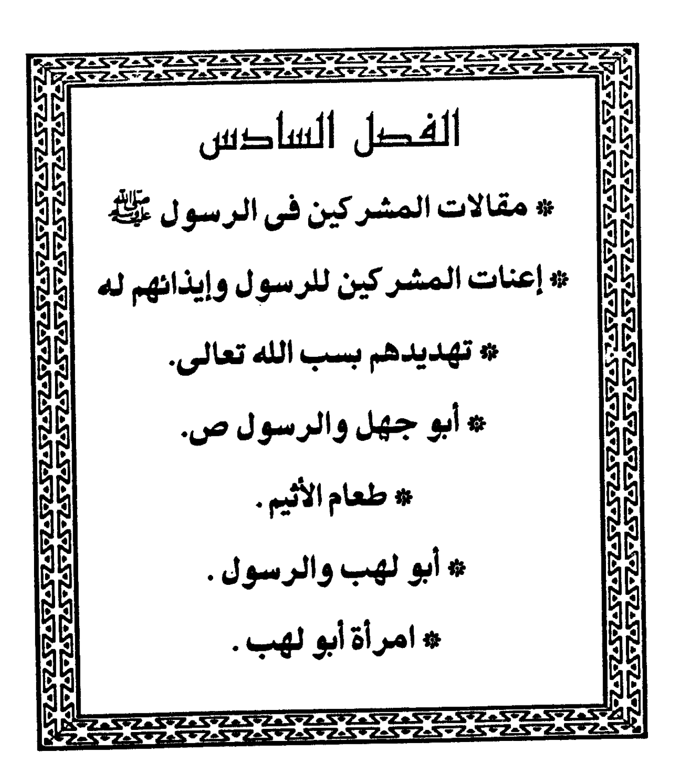
فترة الوحى :

قال ابن هشام : قال ابن إسحاق :

«ثم فتر الوحى عن رسول الله ﷺ فترة حتى شق عليه ذلك فأحزنه، فجاءه جبريل بسورة الضحى، يقسم له ربه وهو الذى أكره بما أكرمه به ما ودعه ربه وما قاله».

فقال تعالى :

﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) ﴾ [الضحى].



الفصل السادس

* مقالات المشركين فى الرسول ﷺ
* إعنات المشركين للرسول وإيذائهم له
* تهديدهم بسب الله تعالى.
* أبو جهل والرسول ص.
* طعام الأثيم .
* أبو لهب والرسول .
* امرأة أبو لهب .

الفصل السادس

مقالات المشركين

فى الرسول ﷺ

فى سيرة ابن هشام أن نفرا من قريش اجتمعوا إلى الوليد ابن المغيرة وكان ذا سن فيهم وقد أظلهم الموسم وخافوا أن تأتى وفود الحجيج فتسمع بأمر النبى ﷺ فتستجيب له فأرادوا أن يجمعوا رأيا يصفونه به ليحولوا بينه وبين الناس.

فسألهم الوليد : قولوا : أسمع..

قالوا: نقول : كاهن. قال : والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه.

قالوا: فنقول : مجنون . قال : ماهو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا وسوسته.

قالوا: فنقول : شاعر . قال : ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه، وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر.

قالوا: فنقول : ساحر. قال : ما هو بساحر لقد رأينا السحار وسحرهم، فما هو بنعثتهم ولا عقدهم.

قالوا: فما نقول : يا أبا عبد شمس ؟

قال : والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق، وإن فرعه لجناة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عُرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا: ساحر، جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته.

ونظير هذا فى القرآن قوله تعالى : حكاية لحال الوليد وما قاله :

﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) ﴾ [المدثر].

إعنات المشركين للرسول وإيذاؤهم له:

قال ابن إسحاق : ثم إن الإسلام جعل يفشو بمكة في قبائل قريش في الرجال والنساء، وقريش تحبس من قدرت على حبسه، وتفتن من استطاعت فتنته من المسلمين .

ثم إن أشراف قريش من كل قبيلة اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة وقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد وخاصموه حتى تعذروا فيه. فبعثوا إليه.. وكان مما قالوا:

«يا محمد فإن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضنا عليك فإنك قد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق بلداً ولا أقل مالا ولا أشد عيشاً منا.. فسل ربك أن يسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا وليفجر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق»... الخ.

هذا المقال عبر عنه القرآن فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) ﴾ [الرعد]

وقوله تعالى :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا (٩٣) ﴾ [الإسراء].

وقال ابن إسحاق : «قالوا: فإذا لم يفعل هذا: فخذ لنفسك، سل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، وسله فيجعل لك جنانا وقصورا وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغى، فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم، وتلتمس المعاش كما نلتمسه حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم».

ونظير هذا فى القرآن قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا (٨) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٩) تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا (١٠) ﴾ [الفرقان].

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠) ﴾ [الفرقان]

أو ترقى فى السماء :

قال ابن إسحاق : «فلما قالوا ذلك لرسول الله ﷺ قام عنهم وقام معه عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة ابن عمة رسول الله ، قائلا له :

« يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم.

ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول، ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل.

ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل.

ثم سألوك أن تعجل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل.

فوالله لا أومن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلما ثم ترقى، وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم يأتى معك أربعة من الملائكة يشهدون لك.. أنك كما تقول، وايم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أنى أصدقك».

نظير هذا فى القرآن قوله تعالى :

﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا (٩٣) ﴾ [الإسراء].

الهمزة اللمزة :

قال ابن إسحاق : وكان أمية بن خلف إذا رأى رسول الله ﷺ همزه ولمزه. قال ابن هشام : والهمزة الذي يشتم الرجل علانية ويكسر عينيه عليه ويغمز به.

ونظير هذا فى القرآن قوله تعالى :

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣) كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ (٩) ﴾[الهمزة].

تهديدهم بسب الله تعالى :

قال ابن كثير: ولقى أبو جهل بن هشام رسول الله ﷺ فيما بلغنى - فقال له: « والله يا محمد لتتركن سب آلهتنا، أو لنسبن إلهك الذي تعبد».

عن هذا يتحدث القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨) ﴾ [الأنعام].

عظيم القريتين :

قال ابن إسحاق : «والوليد بن المغيرة قال : أينزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها؟ ويترك أبو مسعود عمر بن عمير الثقفى سيد ثقيف؟ ونحن عظيما القريتين ؟.

عن هذا يتحدث القرآن فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) ﴾[الزخرف]

أبى بن خلف وعقبة بن أبى معيط :

فى سيرة ابن هشام ما خلاصته : إن أبىٌّ بن خلف وعقبة كانت بينهما صداقة قوية وسمع أبى بأن عقبة جلس إلى رسول الله ﷺ وسمع منه فأعلن قطيعته ما لم يذهب إلى محمد ﷺ ويتفل فى وجهه... وقد فعلها اللعين.

وفى هذا يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً (٢٩) ﴾ [الفرقان].

ومشى أبىٌّ إلى رسول الله ﷺ بعظم بال قد تحطم فقال يا محمد تزعم أن الله يبعث هذا بعد ما أرم - أى بلى - ثم فته فى يديه، ثم نفخه فى وجه رسول الله ﷺ .

وفى هذا يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) ﴾ [يس].

أبو جهل والرسول ﷺ :

قال ابن إسحاق : قال أبو جهل : « يامعشر قريش إن محمداً قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا وشتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وشتم آلهتنا وإنى أعاهد الله لأجلسن له غدا بحجر ما أطيق حمله، فإذا سجد فى صلاته فضخت به رأسه فأسلمونى عند ذلك أو امنعونى فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم».

نظير هذا فى القرآن قوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (١٠) أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (١٩) ﴾ [العلق].

طعام الأثيم :

وأبو جهل هذا هو الذى قال لقومه لما خوفهم الله بشجرة الزقوم قال : قالوا : لا، قال : إنها عجوة يثرب بالزبد . والله لئن استمكنا منها لنتزقمنها تزقماً ساخراً : يا معشر قريش أتدرون ما شجرة الزقوم التى يخوفكم بها محمد ؟

عن هذا الموقف وجزاء صاحبه نزلت الآيات :

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ (٥٠) ﴾ [الدخان].

أبو لهب والرسول :

كان أبو لهب من أشد الناس إيذاء لرسول الله ﷺ، وكما يقول ابن كثير.

«وكان من أشد الناس عليه عمه أبو لهب واسمه عبد العزى ابن عبد المطلب وامرأته أم جميل أروى بنت حرب بن أمية أخت أبى سفيان.

ويقول ابن كثير : إن الرسول ﷺ لما أنذر قومه .. وقال لهم « إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد». قال له أبو لهب : تبا لك سائر اليوم (ألهذا جمعتنا؟). أما دعوتنا إلا لهذا؟

القرآن يسجل هذا فى قوله تبارك وتعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ ﴾ [المسد].

وامرأة أبى لهب :

وكانت أم جميل - امرأة أبى لهب - تحمل الشوك فتطرحه على طريق رسول الله ﷺ حيث يمر فسماها القرآن «حمالة الحطب».. فأتت رسول الله ﷺ وهو جالس بالمسجد وبيدها حجر تريد أن تضربه به فصرف الله بصرها عنه فلا ترى إلا أبا بكر فقالت : يا أبا بكر أين صاحبك؟ فقد بلغنى أنه يهجونى والله لو وجدته لضربت بهذا الحجر فاه، أما والله إنى لشاعرة، ثم قالت شعراً تهجو به الرسول :

مذمما عصينا   وأمره أبينا

ودينه قلينا

ثم انصرفت فقال أبو بكر يا رسول الله : أما تراها رأتك؟ فقال له ﷺ : ما رأتنى لقد أخذ الله بصرها عنى.

حديث أم جميل هذه مذكور فى قوله تعالى : ﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾ [المسد].

وكان رسول الله ﷺ يقول : «ألا تعجبون لما يصرف الله عنى من أذي قريش يسبون ويهجون مذمما وأنا محمد ؟»

لا أسألكم عليه أجرا :

قال ابن إسحاق : «اجتمع نفر من رؤساء قريش فبعثوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا له : يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك.

لقد شتمت الآباء وعبت الدين وسببت الآلهة وسفهت الأحلام وفرقت الجماعة فما بقى أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك.

فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً.

وإن كنت تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا. وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا.

وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجن رئيا- بذلنا لك أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه، فقال : ﷺ:

ما بى ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم.

ولكن الله بعثنى إليكم رسولا وأنزل علىّ كتاباً وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة.

وإن تردوه علىّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم، أو كما قال -عليه الصلاة والسلام- .

نظير هذا فى القرآن قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ [سبأ].

وقوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ (٩٠) ﴾ [الأنعام].

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (١٠٤) ﴾ [يوسف].

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢) ﴾ [المؤمنون].

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٥٧) ﴾ [الفرقان].

وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣) ﴾ [الشورى].

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٦) ﴾ [القلم].

الأفاك الأثيم :

روى ابن كثير قال : روى الإمام أحمد بسنده إلى أنس -رضى الله عنه- قال : قال رسول الله ﷺ «لقد أُذيت فى الله وما يؤذى أحد، وأُخفت فى الله وما يخاف أحد، ولقد أتت علىّ ثلاثون بين يوم وليلة وما لى ولبلال ما يأكله ذو كبد رطبة إلا ما يوارى إبط بلال».

وهذا النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى.

كان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسا فدعا فيه إلى الله تعالى، وتلا فيه

القرآن، وحذر فيه قريشاً مما أصاب الأمم الخالية، خلفه النضر فى مجلسه إذا قام فحدثهم عن رستم وعن اسفنديار وملوك فارس ثم يقول لهم : والله ما محمد بأحسن حديثاً منى، وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها كما اكتتبتها.

هذا النضر تحدث عنه : قول الله - عز وجل - : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠ ﴾ [الجاثية].

وقوله تعالى : ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝١٥ ﴾ [القلم].

ثم يقول تبارك وتعالى عنه : ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ ﴾ [الفرقان].

ويلاحظ هنا أن تصوير النص القرآنى لما كان يقوم به النضر ابن الحارث وأمثاله قد جاوز تصرفه فرداً وانتقل إلى رسم صورة عامة له ولكل الذى يكذب على الله ويكذب على الناس ويحاول بباطله الذى يرويه من أقاصيص الفرس أن يصد الناس عن الحق وعن سبيل الله، وكأنه لم يستمع إلى هذا الحق من الرسول ﷺ ولو استمع إليه لوقر فى أذنيه.

ثم لأنه مصر على الباطل ومستكبر على الحق تراه حتى لو أصغى إلى آيات الله وعلم منها شيئاً لا يتبدل موقفه بل يتخذ آيات الله هزوا، ومن ثم فلا مصير له إلا النار وعذابها العظيم.

وهكذا نرى أن ما جاء فى القرآن عن «النضر وأمثاله» أعظم وأوفى مما جاء فى كتب السيرة.. لأن القرآن أشار إلى الحدث وصور منه النموذج، ثم حلل

دوافعه وبواعثه وخلص أخيراً إلى حكم الله فيه .. وهذا كله لم يرد فى كتب السيرة.

الخلاف المهين :

ومن الذين آذوا رسول الله ﷺ واستهزأوا به، الأخنس ابن شريق بن عمرو بن وهب الثقفى حليف بن زهرة، وكان من أشراف القوم وممن يستمع منه، فكان يصيب رسول الله ﷺ ويرد عليه .. وهذا مجمل ما أوردته بشأنه كتب السيرة.

أما القرآن الكريم فيتخذ منه كما اتخذ من أمثاله نموذجاً للسلوك غير السوى لنماذج من البشر لا عاصم لها من خلق، ولا ضابط لها من عقل راجح أو فكر متزن، وكل ما تعتد به هو المال والبنون فتحملها وفرة المال وعصبية الأهل على السلوك العدوانى غير السوى بين الناس وذلك ما جاء فى قول الحق تبارك وتعالى عنه :

﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦) ﴾ [القلم].

وتقرير أنه «زنيم» والحديث عن المال والبنين فى حياته يشيران بوضوح إلى العلة الكامنة وراء المسلك الشاذ لأعداء الحق فى كل مكان وبيان أنه لا يشذ عن الحق إلا الشواذ عن سواء التكوين أو الشواذ عن سواء السلوك من الناس.



الفصل السابع

* رد القرآن على المشركين.



الفصل السابع :

رد القرآن على المشركين

ويوم يعض الظالم على يديه :

والظالم المشار إليه هنا هو عقبة بن أبى معيط وكان وأبيّ بن خلف متصافيين، وكانا يعاديان الرسول ﷺ : وذات يوم بلغ أبيّ بن خلف أن عقبة أتى رسول الله ﷺ فجلس إليه واستمع منه فأتاه فقال له :

ألم يبلغنى إنك جالست محمداً وسمعت منه ؟! وجهى من وجهك حرام أن أكلمك - واستغلظ من اليمين - إن أنت جلست إليه أو سمعت منه، أو إن لم تأته فتتفل فى وجهه !!

وتقول السيرة : ففعل ذلك - أى تفل في وجه الرسول - صلوات الله عليه- . فعل ذلك عدو الله عقبة بن أبى معيط لعنه الله.

هذا النموذج تحدث عنه القرآن فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً (٢٩) ﴾ [الفرقان].

ويلاحظ من وصف القرآن له بالظالم أنه كان بمثابة حكم دقيق على ما فعله ابن أبى معيط مع رسول الله ﷺ بتحريض أبيّ بن خلف.. هو ظلم من كل منهما لنفسه التى يوردها موارد التهلكة، وظلم للحق، وللرسول ﷺ بما أساء إليه.. والويل لهذا الظالم لنفسه والظالم لرسول الله ﷺ ولذا يعرضه التعبير القرآنى وهو يعض بنان الندم فى يوم لا ينفع فيه الندم متمنيا «المستحيل

أن يعود إلى دنياه فيعتذر إلى الرسول ﷺ مما أساء إليه، ويقطع ما بينه وبين قرين السوء الذى وسوس له كالشيطان.. والشيطان على الدوام خذول للإنسان.. ولكن لات ساعة مندم ؟

و ضرب لنا مثلا ونسى خلقه :

ومرة أخرى نرى الظالم أبى بن خلف يمشى إلى الرسول ﷺ بعظم بال قد ارفت (تهشم وتحطم) فقال : يا محمد أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعد ما أرم!.. ثم فته بيده، ثم نفخه فى الريح نحو رسول الله ﷺ .

فقال رسول الله ﷺ : نعم أنا أقول ذلك، يبعثه الله وإياك بعد ما تكونان هكذا، ثم يدخلك الله النار.

هذا ما أوردته كتب السيرة .

أما فى القرآن الكريم فنرى الحدث يتحول إلي نموذج عام يهمل فيه أصل الحدث ويشار فقط إلى سماته القابلة للتكرار. ويلفت فيه الانتباه إلى البديهيات التى كان يجب ألا تنسى، لأن من خلق الأشياء من العدم قادر بداهة وعقلا على أن يعيدها إذا فنيت، لكن هذه البديهية لا تراها الأبصار إذا ضلت البصائر ولذا نبه القرآن إليها وإلى نظائرها مما يبدو جديرا بالعجب والاعتبار، كذلك الشجر الأخضر الذى تخرج منه بعد جفافه النار وذلك فى قوله تعالى :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾ [يس].

نعم «كن فيكون» لأن هذا مناط قدرة الله، وأمام قدرة الله لا يصعب شيء في الأرض ولا في السماء.

لقد تحول الحدث الصغير إلى درس كبير وهذا فرق ما بين السيرة في السيرة، والسيرة في كتاب الله.

لا أعبد ما تعبدون:

جاء في كتب السيرة: أن رسول الله ﷺ كان يطوف بالكعبة فاعترضه الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى، والوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل السهمي وكانوا ذوي أسنان في قومهم فقالوا:

يا محمد، هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه.

هكذا جاء في السيرة حديثاً هادئاً في أمر ظن المشركون أنه قابل للمساومة.

أما في القرآن الكريم فقد صيغ الحدث بمثابة بيان أو إعلان تحذيري حاسم يقرر افتراق الطريق بين الكفر والإسلام في سورة من ست آيات قصار تبدأ أربع منهن بحرف النفي «لا» ويتقدمهن نداء الإنذار ثم يتبعن بقرار الختام الذي تصبح معه السورة بآياتها أشبه شيء بالبلاغ الحربي الموجز الشديد الحاسم، الذي لا مجال بعده لتردد أو جدال، وذلك في قوله تبارك وتعالى:

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) ﴾ [الكافرون].

لو كان خيرا ما سبقونا إليه :

قال ابن هشام : «وكان رسول الله ﷺ إذا جلس فى المسجد وجلس إليه المستضعفون من أصحابه : خباب وعمار وأبو فكيهة، وصهيب وأشباههم من المسلمين هزئت بهم قريش.

وقال بعضهم لبعض : هؤلاء أصحابه كما ترون أهولاء من الله عليهم من بيننا بالهدى والحق، لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقونا إليه .. وما خصهم الله به من دوننا.

هذا الموقف هو ما عبر عنه القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأنعام].

ويلاحظ أن حديث القرآن الكريم عن الموضوع جاء تصحيحاً للنظرة الخاطئة لدى أولئك الجاهلين، وتقريراً للمعيار الذى وضعه الإسلام منذ البداية لتقييم أعمال الناس فليس هو المال ولا الجاه، ولكن علاقة العبد بخالقه ولذا فإن الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى أولى بصحبة الرسول ﷺ من أولئك الفارغين.

ذاك أعجمي وهذا عربي :

قال ابن هشام : وكان رسول الله -فيما بلغني- كثيراً ما يجلس عند المروة إلى مبيعة غلام نصراني يقال له : جبر وهو عبد لبني الحضرمي، فكانوا يقولون ، والله ما يعلم محمدا كثيراً مما يأتي به إلا هذا النصراني - غلام بني الحضرمي.

عن هذا الموقف يتحدث القرآن الكريم فيشير إلى أساس الاتهام الذى كان المشركون يقولونه ويرددونه وهو أن القرآن ليس من عند الله وإنما هو افتراء من الرسول ﷺ وحاشا له.

ويرد الزعم فى وجوه أصحابه مقررا أن القرآن بأمر الله قد نزل به الروح القدس، وأن مزاعم المشركين متوقعة منهم ماداموا فى ضلالة الشرك، ولو قد ذاقوا حلاوة الإيمان لكان لهم من الرسول ﷺ ومن القرآن شأن آخر ثم يردهم إلى ملاحظة شديدة الوضوح لو كانوا يبصرون وهى : أن الفتى الذى يزعمون أن الرسول تعلم منه القرآن أعجمى اللسان والقرآن عربى والرسول كذلك فكيف يجتمعان. وذلك فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥) ﴾ [النحل].

إن شانئك هو الأبتر:

قال ابن هشام : وكان العاص بن وائل السهمى إذا ذكر رسول الله ﷺ قال : دعوه فإنما هو رجل أبتر لا عقب له ولو مات لانقطع ذكره واسترحتم منه.

عن هذا المعنى يتحدث القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣ ﴾ [الكوثر].

ومع أن هذه الآيات الكريمة جاءت ضرباً من المواساة للرسول ﷺ والدفاع عنه فهى كذلك تصحح المعيار وتعطى للأبتر معنى غير المتعارف لديهم.

فليس الأبتر من انقطع عقبه وفنيت ذريته وإنما الأبتر من انقطع أمله فى الآخرة لبغضه رسول الله ﷺ وعدم استجابته للحق، فليس الذكر والصيت وليس الصدق بكثرة الأولاد والعقب وإنما هو بالإسلام لله واتباع رسوله.

سنكتب ما يقول :

والعاص بن وائل هذا له موقف مع الصحابى الجليل خباب بن الأرت وكان قينا (حدادا) يعمل السيوف بمكة فعمل للعاص عملا حتى كان له عليه مالٌ فجعل يتقاضاه منه فقال العاص :

يا خباب : أليس يزعم محمد صاحبكم الذي أنت على دينه أن فى الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب أو فضة أو ثياب أو خدم ؟!

قال خباب : بلى .

قال فأنظرنى إلى يوم القيامة يا خباب حتى أرجع إلى تلك الدار فأقضيك حقك هنالك، فوالله لا تكون أنت وصاحبك يا خباب آثر عند الله منى، ولا أعظم

حظا فى ذلك.. فنزل فيه قوله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْداً (٧٨) كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَداً (٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً (٨٠) ﴾ [مريم].

لولا أنزل عليه ملك :

قال ابن هشام : ودعا رسول الله ﷺ قومه إلي الإسلام وكلمهم فأبلغ إليهم فقال له نفر منهم (ذكر أسماءهم) يا محمد : لو جعل معك ملك يحدث عنك الناس ويرى معك ؟!

فى هذا يقول القرآن الكريم : ﴿ وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) ﴾ [الأنعام].

ويقول : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥) ﴾ [الإسراء].

ومن الواضح أن مراد القرآن هو إشعار هؤلاء الناس باستحالة إنزال الملك لمصاحبة الرسول ﷺ لسببين :

الأول : أنه لو أنزل فسينزل على صورة بشرية وعندئذ يبقى الالتباس ولا يكون ثمة فائدة من نزوله.

الثانى : أنه لو كان أهل الأرض ملائكة لأرسل الملك إليهم، وما داموا بشراً فرسول الله إليهم هو سيد البشر – صلوات الله عليه –.

ولقد استهزئ برسل من قبلك :

قال ابن هشام : ومر رسول الله ﷺ بنفر من قريش -سماهم- فهمزوه واستهزءوا به فغاظه ذلك، فأنزل الله تعالى قوله :

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (١٠) ﴾ [الأنعام].

وثمة آيات كثيرة جاءت فى كتاب الله تعالج هذا الموضوع .. موضوع المستهزئين بالرسول ﷺ وبرسالته.. وهى فى جملتها تدور فى محورين:

(أ) المحور الذى عبرت عنه الآية السابقة، وهو إعلان سوء المنقلب وبئس المصير لكل من أذوا رسل الله من قبل ومن يؤذون رسولنا- صلوات الله عليه- وذلك مثل قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (١٠) ﴾ [الأنعام].

وقوله تعالى : ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧) ﴾ [الأنعام].

وقوله تعالى : ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٤١) ﴾ [يونس].

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) ﴾ [الرعد].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ

﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الحج].

وقوله تعالى : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فاطر].

أما النوع الثانى من الآيات التى تحدثت عن المكذبين والمستهزئين فقد اتجهت إلى التهوين على الرسول ﷺ ومواساته والربط على قلبه وذلك بالإشارة إلى من سبق أن كذبوا من الأنبياء والرسل وذلك من مثل قوله تعالى :

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ ﴾ [آل عمران].

وقوله تعالى : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنعام]

وقوله تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ

﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر].

وقوله تعالى : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴿٤﴾ ﴾ [فاطر].

اجعل الآلهة إلها واحدا :

قال ابن هشام : لما ثقل المرض بأبى طالب عم النبى ﷺ مشى إليه أشراف قومه ليكلموه فى أمر النبى ﷺ فقال لهم الرسول ﷺ : «كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم».

فقال له أبو جهل .. نعم وأبيك وعشر كلمات.

قال : تقولون لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه.

قال : فصفقوا بأيديهم ثم قالوا: أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهاً واحدا؟ إن أمرك لعجب.

عن هذا الموقف يتحدث القرآن الكريم منكراً على الكافرين ما هم فيه منذراً لهم بسوء المنقلب وعقبى نظرائهم من المكذبين السابقين وذلك فى قوله تعالى :

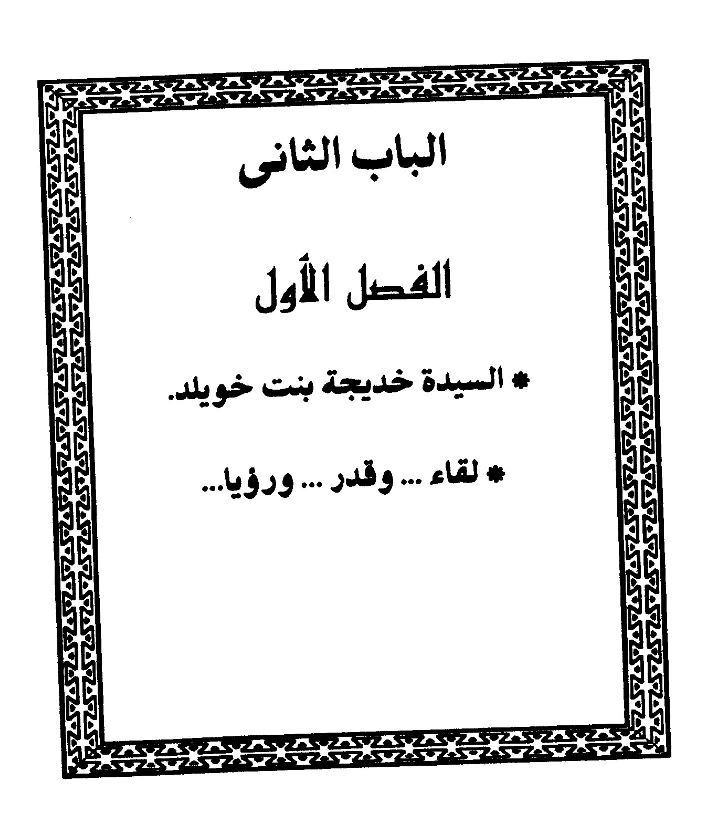
﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ ﴿٧﴾ أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ ﴾ [ص].

وفى مواطن أخرى من القرآن يتكرر الحديث عن النموذج نفسه نموذج الضالين المكذبين اذين يظنون أن استمساكهم بآلهتهم هو الحق، غافلين عما ينتظرهم من سوء المصير فى مثل قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً (٤١) إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٢) أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٤) ﴾ [الفرقان].

ومثله قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ (٣٦) ﴾ [الصافات].

وقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) ﴾ [الزخرف].



الباب الثانى

الفصل الأول

* السيدة خديجة بنت خويلد.

* لقاء ... وقدر ... ورؤيا...



الباب الثانى

الفصل الأول :

السيدة خديجة بنت خويلد

رضى الله عنها

أم المؤمنين الأولى .. التى وفت لربها ولزوجها ﷺ فكانت الأم والأخت والزوجة.

واختصت بخصائص انفردت عن غيرها من نساء النبى ﷺ ، نذكر منها أنها الأولى بينهن .. ولم يتزوج عليها رسول الله ﷺ فى حياتها حباً لها ظل حبها فى قلبه لا يتغير ولا يتبدل حتى بعد وفاتها وزواجه من غيرها حتى أن السيدة عائشة – رضى الله عنها- غارت منها وهى ميتة وأظهرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال لها حين قالت له أن الله أبدلك خيراً منها:

«والله ما أبدلنى الله خيراً منها : آمنت بى حين كفر الناس، وصدقتنى إذ كذبنى الناس، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس، ورزقنى منها الله الولد دون غيرها من النساء».

ورزق منها الولد والذرية كما جاء فى الحديث السابق وامتدت الذرية من ولد ابنتها فاطمة -رضى الله عنها- من أبنيها الحسن والحسين إلى يوم القيامة، وتحملت عبء الدعوة فى بدايتها، وانفردت أيضاً أنها عاشت مع رسول الله ﷺ قبل بعثته وبعد أن بعث بالرسالة، وقبل وفاتها أرسل إليها الله – سبحانه وتعالى -بالسلام مع جبريل -عليه السلام-.

---

(١) نساء أهل البيت – محمد عبد الحكيم – م. التوفيقية.

إن التاريخ الإنسانى على مراحله لم يذكر امرأة فاضلة وفت وأدت واجباتها تجاه زوجها كما كانت - رضى الله عنها- . لقد كانت بمثابة الوزيرة ذات الرأى الصائب والأم الحنون والزوجة التى تشع بالدفء والعاطفة الجياشة والصديقة التى آزرت وأعطت المال والجهد والصبر فى المواقف الشداد

لم يحفظ لنا التاريخ مثل تلك السيدة الفاضلة .. وهذا يزيد الأمر صعوبة ومشقة حين نتحدث عن سيرتها.

لقد عدها المؤرخون والفقهاء من أفرس النساء على مر التاريخ لأنها اختارت النبى ﷺ زوجا . لم يكن هذا الاختيار عبثاً أو زواجاً عادياً.. إنما جاء عن بصيرة ثاقبة وانشراح صدر وقلب، ورجاحة عقل.. ورؤية نافذة وهذا يتضح لنا حين نتعرف على قصة هذا الزواج الذى غير مجرى التاريخ.

لقد كان بعض زوجات الرسل عوناً عليهم، مثل نوح ولوط بل وأبينا آدم، وقد فضل رسول الله ﷺ عن أبيه آدم أن زوجته ﷺ كانت عوناً له وكانت زوجة أبينا آدم عوناً عليه.

ودعونا نتعرف على السيدة الفاضلة.

أبوها خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قُصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب.

تزوجت قبل النبى ﷺ مرتين .. المرة الأولى من عتيق بن عائذ بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ثم تزوجت بعد موته من أبى هالة هند بن زرارة التميمى، وقد مات أيضاً.

وبعد وفاة زوجها الثانى وقد بلغت من العمر الخامسة والعشرين لم تتزوج وانشغلت بأمر تجارتها، فهى ذات شرف ومال، فكانت تستأجر الرجال التجار من أهل مكة فى تجارتها ونجعل لهم أجراً على ذلك

لقاء .. وقدر .. ورؤيا

ولأنها كانتا تعمل بالنجارة وكانت تستأجر من ترى من رجال مكة كى يتاجرون لها نظير أجر أو نسبة فى الأرباح، فكانت على علم بما يفعله أولئك الذين يستأجرهم لمباشرة تجارتها فى رحلتى الشتاء والصيف وذلك عن طريق غلام لها يدعى «ميسرة» . ترسله مع تجارتها كى يراقب التجار والتجارة ثم يأتيها بالأخبار وكثيراً ما يذكر لها ما يفعله أولئك التجار الذين تستأجرهم من سرقة مالها ولكنها لا تملك حيلة لذلك.

وبحثت خديجة -رضى الله عنها- عن تاجر أمين يتاجر لها فى رحلة الصيف القادمة إلى الشام.

وترامت إليها سيرة محمد ﷺ الذى لُقب من أهله بالصادق الأمين لصدقه وأمانته وأضف إلى ذلك كونه قريباً لها، فعمته صفية بنت عبد المطلب زوجة أخيها العوام بن خويلد وابنهما الزبير بن العوام.

وأرسلت السيدة خديجة إلى محمد ﷺ تعرض عليه أن يباشر تجارتها فى رحلة الشام وتعطيه ضعف ما تعطى التجار الذين كانت تستأجرهم من قبل، وقالت له : إنه دعانى إلى البعثة إليك ما بلغنى من صدق حديثك وعظمة أمانتك وكرم أخلاقك وأنا أعطيك ضعف ما أعطى رجلاً من قومك

وأخبر رسول الله ﷺ عمه أبا طالب بذلك، ففرح العم وقال لابن أخيه : «أن هذا لرزق ساقه الله إليك».

وبالفعل قبل رسول الله ﷺ أن يتاجر فى مال السيدة خديجة فى رحلة الشام، وخرج معه غلامها «ميسرة» كعادته يرقب ما يحدث فى الرحلة ثم يخبر سيدته عما رأى وشاهد.

وصلت القافلة الشام، وفى سوق بصرى جلس رسول الله ﷺ تحت ظل شجرة قريبة من صومعة راهب يسمى «نسطورا».. ونظر إليه الراهب فى دهشة ورأى الغلام ميسرة بجواره فسأله :

- من هذا الذى نزل تحت هذه الشجرة.

قال ميسرة :

- رجل من قريش من أهل الحرم.

فقال الراهب :

- مانزل تحت هذه الشجرة إلا نبى .. هل فى عينه حمرة.

قال ميسرة :

- نعم لا تفارقه.

فصاح الراهب:

- هو هو وهو آخر الأنبياء ويا ليتنى أدركه حين يؤمر بالخروج.

وأضمر ميسرة ما قاله الراهب فى نفسه وحفظه، والشيء الآخر الذى رآه ميسرة عجيباً أن سحابة تظلل رسول الله ﷺ إذا مشى فى الهجير تحت الشمس الحارقة، وأراد ميسرة أن يتأكد .. هل تلك السحابة تقصد رسول الله ﷺ .. أم أنها مصادفة !! فمشى معه فإذا السحابة لا تظلله.. فإذا انصرف عنه عادت إليه تظلله وحده.

عجباً.. ما رأيت وما سمعت يا ميسرة .. وعادت القافلة وقد ربحت أكثر ما ربحت من قبل. وأخبر «ميسرة» السيدة خديجة بما رأى من أمر رسول الله ﷺ وما قاله الراهب حين رآه.. وكيف كانت تجارته من أمانة فى البيع والشراء.. وكيف ربح وغنم بالأمانة والصدق.

واستمعت السيدة خديجة لما قاله ميسرة لها وتأكدت من صدق أمانته وما يقال عنه أنه الصادق الأمين حقا إنه لصادق أمين

لقد ربحت تجارتها ضعف ما ربحت من قبل

وعادت السيدة خديجة بذاكرتها إلى الوراء قليلاً حين عادت إلى بيتها يوماً بعد أن طافت بالكعبة ورأت فيما يرى النائم أن شمساً عظيمة تهبط من سماء مكة وتستقر فى بيتها، وتملؤه نوراً وبهاءًا بل ويغمر هذا النور كل ما حولها، وتذهب خديجة حائرة إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ذلك العابد العالم الذى اعتزل عبادة الأوثان وقرأ التوراة والإنجيل ويعبد الله على دين إبراهيم وعيسى بن مريم - عليهما السلام- وقصت عليه ما رأت فى منامها.. وأصغى إليها ورقة بن نوفل باهتمام ثم قال لها

- ابشرى يا ابنة العم، لو صدق الله رؤياك ليدخلن نور النبوة دارك وليفيض منها نور خاتم النبيين.

وسرت خديجة بذلك سروراً كبيراً- وتمنت لو تزوجت بذلك النبى الخاتم الذى أخبرها عنه ابن عمها ورقة وأكد لها أن هذا هو زمانه

وتتابعت أسئلة خديجة لورقة بن نوفل عن أوصاف ذلك النبى الخاتم المنتظر. وورقة يجيب على أسئلتها وهى مصغية إليه، فلعل اله يرزقها الزواج به.





الفصل الثانى

* الزواج المبارك .

* أسعد زوجين فى مكة.

* الذرية من خديجة.

* نزول الوحى عل رسول الله ﷺ.



الفصل الثاني :

الزواج المبارك

تجمع لدى خديجة يقين مؤكد أن محمد بن عبد الله ليس رجلاً عادياً، بعد أن قص عليها ميسرة ما حدث ورآه وذكره الراهب فى الشام، والرؤيا التى رأتها منذ فترة وأخبرت بها ابن عمها ورقة بن نوفل وما ذكره لها عن النبى المنتظر آخر الزمان، وأوصافه هذا النبى تنطبق على محمد بن عبد الله.

أدركت خديجة -رضى الله عنها- بفراستها وحكمتها ورجاحة عقلها أن محمداً هو النبى الخاتم، ولكن هناك عقبة تحول بينها وبينه.. إنه فارق السن.. فهو يبلغ من العمر خمسة وعشرون عاماً وهى فى الأربعين من عمرها، وأنها ذات مال وهو قل لا مال له، ورأت أن ترسل إليه من يجس النبض، فأرسلت إليه صديقتها نفيسة بنت منبة إلى محمد ﷺ تسأله :

فقالت له : يا محمد ما يمنعك أن تتزوج؟

قال لها: ما بيدى ما أتزوج به.

قالت : فإن كفيت ذلك ودعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة .. ألا تجيب؟

قال: فمن هى ؟

قالت : خديجة!

قال : وكيف لى بذلك ؟

قالت : علىّ

قال : فأنا أفعل.

وذهبت نفيسة الخير إلى خديجة تخبرها الخبر والموافقة.. وذكر ابن هشام فى السيرة النبوية أن السيدة خديجة -رضى الله عنها بعثت إلى رسول الله ﷺ فقالت له فيما يزعمون يا ابن عم إنى قد رغبت فيك لقرابتك وسطتك - أوسطك - فى قومك وأمانتك، وحسن خلقك، وصدق حديثك

ثم عرضت عليه نفسها، وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسباً، وأعظمهن شرفاً وأكثرهم مالاً، وكل قومها كان حريصاً على ذلك منها لو يقدر عليه

فلما قالت ذلك لرسول الله ﷺ ذهب إلى أعمامه يستشيرهم فى أمر ذلك الزواج، فوافق أعمامه على الزواج.

وأرسلت خديجة إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها.. وحضر إلى بيت خديجة -رضى الله عنها- رسول الله ﷺ وعمه أبو طالب وعمه الحمزة بن عبد المطلب وصديقه أبى بكر وعمار بن ياسر، وجاء من أهل خديجة عمها عمرو بن أسد وابن عمها ورقة بن نوفل وابن أخيها حكيم بن حزام وبعض النسوة من أقاربهما.

وقام أبو طالب عم النبى ﷺ خطيباً خطبة الأملاك وهى خطبة الزواج وهو ما نسميه نحن الإيجاب فقال

الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل وضئضئ معد - أصل معد- وجعل لنا بيتاً محجوباً وحرماً آمناً وجعلنا الحكام على الناس، ثم أن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله لا يوزن برجل إلا رجح عليه براً وفضلاً، وشرفاً وعقلاً، ومجداً ونبلاً، فإن كان مع المال قُل -قليل المال- فإن المال ظل زائل وأمر حائل وعارية مسترجعة، ومحمد من قدم عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها ما أجله وعاجله من مالى عشرين بكرة.. وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم، وخطر جليل فزوجها

فقال عمها عمرو بن أسد :

اشهدوا عليَّ يا معشر قريش أنى قد انكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد.

وذبحت الإبل وأطعم الناس، وفرح الناس لهذا الزواج المبارك وكان أشد الناس فرحاً أبو طالب فقد اطمأن على ابن أخيه الذى تركه جده عبد المطلب له أمانة فى عنقه، فالآن أصبح زوجاً لسيدة شريفة النسب ذات جمال ومال.

أسعد زوجين فى مكة

لقد جمع بيت الزوجين بأفضل زوجين عرفهما التاريخ البشرى على إسلاقه، وظللت السعادة بظلالها على البيت السعيد، فهذا محمد ﷺ لطيف المعشر، عطوف، واسع الكرم ذو مروءة.. ليس بالفظ أو غليظ القلب، فاض حنانه على جميع من حوله.

وهذه خديجة -رضى الله عنها- قد هيئت البيت بأسباب السعادة لزوجها.. مطيعة له.. لا تبخل عليه بمالها وعواطفها الجياشة، فكانت تحبه حباً عظيماً ملك عليها كل مشاعرها، فكانت العشرة الزوجية أصدق دليل على هذا الحب الذى لا ينتهى.

وداخل الدار كان ابن خديجة من زوجها السابق «هند» فنشأ فى حجر رسول الله ﷺ .. وأتى رسول الله ﷺ معه بجاريته بركة أم أيمن الحبشية.

وكان بالدار أيضاً عبداً مملوكاً لخديجة - رضى الله عنها- اشتراه ابن عمها حكيم بن حزام من سوق عكاظ ووهبه إلى السيدة خديجة .. وكان ذاك هو زيد بن حارثة الذى خطفه تجار الرقيق من أمه وباعوه عبداً فى سوق عكاظ.. فهو حر بن حر.. ووهبت خديجة - رضى الله عنها- زيداً إلى النبى ﷺ .. وعامله الرسول ﷺ معاملة الابن.

حتى أنه - رفض - العودة إلى أهله حين أرادوا فداءه وآثر البقاء مع رسول الله ﷺ لما رآه من حُسن معاملة بل وفراسة منه أن هذا الرجل سوف يكون له شأن عظيم فما كان من رسول الله ﷺ وذلك قبل مبعثه ونزول الوحى عليه أن أعلن أن زيداً هذا ابنه، له كافة حقوق الابن من النسب والميراث، ودعى بعد ذلك بزيد بن محمد حتى ألغى التبنى بعد ذلك مع نزول الوحى على رسول الله ﷺ .

الذرية من خديجة

أنعم الله على الزوجين بنعمة الأولاد، فلم تمر شهور وقد شعرت خديجة بوادر الحمل، فكان أول الذرية هى زينب بنت محمد ﷺ .. ونشأت الوليدة المباركة فى كنف وحنان أبيها وأمها وبعد عامين رزقهما الله بطفلة أخرى هى رقية بنت محمد ﷺ ، ثم تتابعت الذرية الطيبة المباركة.. فجاءت أم كلثوم بنت محمد ﷺ ثم فاطمة الزهراء وولدت له من الذكور القاسم وبه لُقب ﷺ فكان ينادى عليه يا أبا القاسم .. ورزق به بعد النبوة ومات قبل أن يكمل رضاعته.

ولم يبق من أولاده سوى البنات فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن معه ﷺ ، ولم يفرق رسول الله ﷺ فى معاملة بين أبنائه من خديجة - رضى الله عنها- وبين ابنها من زوجها السابق «هند» ابن أبي هالة وأيضا زيد بن حارثة فقد وسعهم قلبه الكبير وأفاض عليهم بالحب والعطاء والحنو الأبوى.

وهكذا عاشت الأسرة المحمدية فى سعادة وهناء رغم موت ابنى رسول الله ﷺ الذكور القاسم وعبد الله حتى بلغ النبى ﷺ سن الأربعين فجاءته الرسالة من رب السماء.

نزول الوحى

على رسول الله ﷺ

لقد عرف رسول الله ﷺ ربه قبل أن يبعث، فلم يسجد لصنم فى حياته ولم يعبد الأصنام أبداً، فقد أشرق قلبه بنور الإيمان الفطرى وأرشد إلى الحق، فكان يخرج إلى جبل النور حيث غار حراء بمكة في شهر رمضان ويتعبد لله الواحد الأحد، وكان يجلس فى الغار الليالى الطوال ولا يخرج إلا أن يأتى بالطعام، وقد وفرت له الزوجة الطاهرة خديجة أسباب الخلوة والعبادة، فكانت نعم المعين له على ذلك.

وحبب لرسول الله ﷺ الخلوة وذلك قبل مبعثه وأيضاً الرؤيا الصالحة الصادقة يراها كفلق الصبح، فكان لا يرى رؤيا إلا تحققت، وظل الأمر على ذلك الحال حتى كمل الأربعين وفى ليلة القدر فى رمضان وفى غار حراء جاءه الملك فى هيئة رجل فقال له:

- اقرأ.

قال رسول الله ﷺ :

- ما أنا بقارئ.

فأخذه وضمه حتى بلغ منه الجهد ثم أرسله وقال له :

- اقرأ.

فقال له رسول الله ﷺ .

- ما أنا بقارئ.

فأخذه وضمه مرة ثانية وأرسله وقال له :

- اقرأ.

فأجابه ﷺ :

- ما أنا بقارى.

فأخذه وضمه ثالثة وأرسله وقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾ [العلق].

وانطلق رسول الله ﷺ إلى بيته فدخل على زوجته خديجة -رضى الله عنها- وهو يقول لها :

- «زملونى .. زملونى» أى غطونى.

فوضعوا عليه الأغطية حتى ذهب عنه الروع والخوف، ثم قال لها:

- أى خديجة .. لقد خشيت على نفسى.

وأخبرها بما حدث له فى الغار فقالت له الزوجة المؤمنة البارة الصادقة الوفية :

- كلا .. والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكَلّ، وتُكْسِب المعدوم وتَقْرِى الضيف، وتعين على نوائب الحق».

وهكذا كان موقف خديجة - رضى الله عنها- من المؤازرة والتصديق وبعد النظر وقوة البصيرة.

وذهبت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل الذى تنبأ لها من خلال رؤياها السابقة أنها تتزوج بخاتم الأنبياء.. وكان شيخاً كبيراً فى السن ويتعبد على دين النصرانية ويقرأ التوراة والإنجيل فقالت له خديجة :

– يا ابن عم . اسمع من ابن أخيك

قال ورقة لرسول الله ﷺ .

– يا ابن أخى، ماذا ترى ؟

فاخبره رسول ﷺ بما رأى وسمع من الملك فى الغار.

– اهتز ورقة بن نوفل لما سمع من رسول الله ﷺ وسرى روح الإيمان فى جسده الهزيل الذى أضعفه المرض وانتفض يقول ويردد :

«هذا الناموس (الوحى) الذى نزل على موسى –عليه السلام–، يا ليتنى فيها جذعاً، ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك».

فقال له رسول الله ﷺ :

– أو مخرجى هم.

قال ورقة له :

– نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً.

وهدءت نفس رسول الله ﷺ لما سمع من ورقة بن نوفل وانصرف مع زوجته إلى بيتهما .

وتلك الوقفة لحديجة بنت خويلد مع زوجها رسول الله ﷺ تبين مدى وصلت إليه من ثبات اليقين وكمال عقلها وفراستها، فقد كانت أعرف بقدر زوجها رسول الله ﷺ ، فهى تعرفه حِ المعرفة وتعرف خصائله ومكارم أخلاقه، وإيمانه فقالت له ما قالت بل وأكدت فراستها وصدق إحساسها عندما أكد ورقة بن نوفل ما اطمأنت إليه نفسها وقلبها من قبل.

وكانت أول المؤمنين المسلمين لله على يد رسول الله ﷺ

وأصبح دار خديجة -رضى الله عنها- هو بيت النبوة.. فقد أسلمت خديجة وبناتها، ذكر ابن إسحاق فى سيرته عن أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها- قالت : لما أكرم الله نبيه بالنبوة، أسلمت خديجة وبناته.

وأسلمت الأسرة الكريمة من الزوجة والبنات وزيد بن حارثة الذى كان وقتها يدعى زيد بن محمد وكذلك ابن عمه على بن أبى طالب فقد كان فى بيته يربيه ويرعاه.

ومن فراسة خديجة - رضى الله عنها- ما أورده ابن هشام فى سيرته ونقله عنه الذهبى ، قال : قالت خديجة لرسول الله ﷺ : يا ابن عم، أتستطيع أن تخبرنى بصاحبك - تقصد جبريل - عليه السلام- إذ جاءك؟

فلما جاءه قال : يا خديجة هذا جبريل!

فقالت : اقعد علي فخذى .. ففعل.

فقالت : هل تراه ؟

قال : نعم.

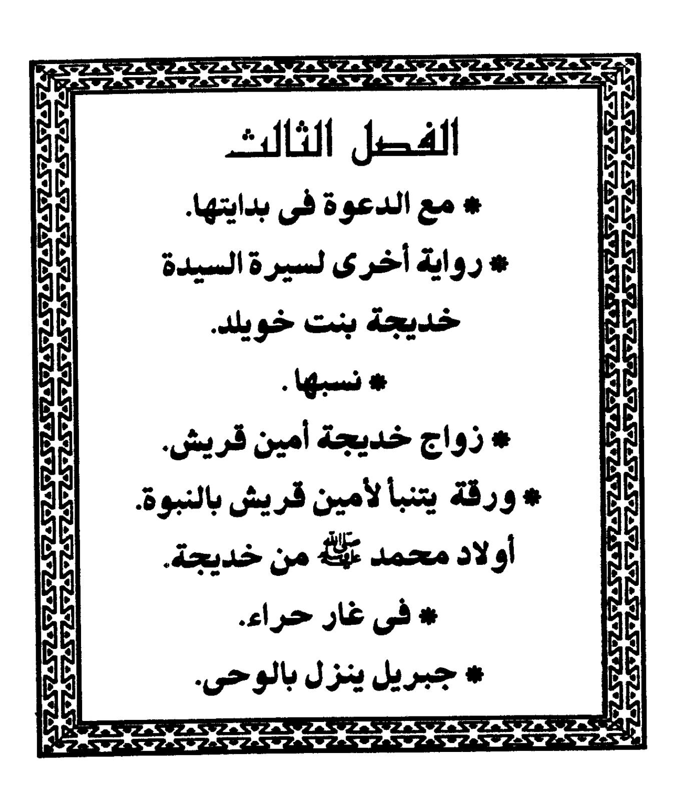
فألقت خمارها وحسرت عن صدرها.

فقالت : هل تراه ؟

قال لا

قالت : أبشر فإنه والله ملك وليس بشيطان

هكذا كانت فراستها وقوة البصيرة والإيمان لديها.



الفصل الثالث

* مع الدعوة فى بدايتها.
* رواية أخرى لسيرة السيدة خديجة بنت خويلد.
* نسبها.
* زواج خديجة أمين قريش.
* ورقة يتنبأ لأمين قريش بالنبوة.

أولاد محمد ﷺ من خديجة.

* فى غار حراء.
* جبريل ينزل بالوحى.

الفصل الثالث:

مع الدعوة فى بدايتها

كما كان لها فضيلة السبق فى الإيمان والإسلام، كان لها أن تلك الفضيلة فى تحمل أعباء الدعوة مع زوجها رسول الله ﷺ، فقد كانت الزوجة الأمينة الوفية لدينها وزوجها. وظلت صابرة مجاهدة حين عادى أهل الشرك من قريش الرسول ﷺ حين صدع بأمر الله داعياً إلى الإسلام وتابعت رسول الله ﷺ فى أمور العبادة فكانت أول من صلى خلف النبى ﷺ فى مكة وكان أمراً مستغرباً وتروى كتب السيرة عن عفيف الكندى قال: كان العباس بن عبدالمطلب لى صديقاً وكان يختلف إلى اليمن يشترى العطر، ويبيعه أيام الموسم، فبينما أنا عند العباس بمنى، فأتاه رجل مجتمع فتوضأ فأسبغ الوضوء، ثم قام فصلى، فخرجت امرأة فتوضأت، ثم قامت تصلى، ثم خرج غلام قد راهق، فتوضأ ثم قام إلى جنبه يصلى، فقلت : ويحك يا عباس، ما هذا الدين !! قال : هذا دين محمد بن عبدالله ابن أخى، يزعم أن الله بعثه رسولاً، وهذا ابن أخى علىٌ بن أبى طالب قد تابعه على دينه، وهذه امرأته خديجة قد تابعته على دينه.

قال عفيف الكندى بعد أن أسلم : يا ليتنى كنت رابعاً.. ذكره صاحب عيون الأثر وغيره.

ومع تتابع نزول القرآن على الرسول الكريم ﷺ كانت عداوة أهل الكفر من قريش تتزايد، وعلى رأس القائمة تأتى أم جميل وزوجها أبو لهب عم النبى ﷺ، وكان ابناهما قد تزوجا بابنتى رسول الله ﷺ رقية وأم كلثوم، فأما عتبة بن أبى لهب فقد فارق رقية – رضى الله عنها– دون أن يؤذيها أو يؤذى أباها ﷺ وقد سأله أن يطلقها، وأما عتيبة بن أبى لهب فقد طلق أم كلثوم –رضى الله عنها– ولكن آذي رسول الله ﷺ وأعلن العداوة ولعب الشيطان بعقله فجاء

إلى النبى ﷺ وسطا عليه ومزق قميصه، فدعى عليه رسول الله ﷺ : «اللهم ابعث عليه كلباً من كلابك» وقد استجاب الله لدعوة نبيه ﷺ، وبالفعل قتل هذا الكافر بواسطة كلب من كلاب الله.

وتزوجت رقية -رضى الله عنها- بعثمان بن عفان وهاجرت معه إلى الحبشة مع من هاجروا إليها فى أحد عشر رجلاً وأربع نسوة من قريش .. وتحملت السيدة خديجة - رضى الله عنها- فراق ابنتها فى سبيل الدعوة.

ورغم أن عدد المسلمين فى مكة إبان العصر المكى للدعوة الإسلامية لا يزيد عن الأربعين إلا قليلا، إلا أن قريشا قد شعرت بأن خطر هذا الدين يزداد، الأمر الذى جعلهم يوجهون الضربة القاضية بقتل رسول الله ﷺ واتفقوا على ذلك وعلم بنو هاشم بذلك وأعلنوا حمايتهم لمحمد ﷺ، رغم أن أكثرهم كان على غير دينه ولكنها الحمية والعصبية القبلية، والتى جعلها الله نصرة لدينه.

وكان هذا التحول المفاجئ فى حرب دعوة الإسلام أمراً خطيراً عند العرب، فقد أذى أهل الشرك فى قريش المؤمنين، فكان النصيب الأوفر من العذاب للمستضعفين الذين لا أهل لهم يمنعونهم أو عشيرة، وبالجملة فقد تحمل كل من آمن الأذى بقدر ما أسبغ عليه عشيرته من حماية.

ولكن الطامة الكبرى حين أراد مشركو قريش القضاء على نبى الإسلام.. هنا وقف بنو هاشم صفاً واحداً بزعامة العم أبى طالب ولم يشذ عنهم إلا الكافر أبا لهب عليه - لعنة الله - فقد انحاز إلي جانب المشركين بل تزعمهم مع أبو جهل عليه - لعنة الله -.

وأما حماية بنى هاشم لابنهم البار ﷺ رغم أنهم يخالفونه، اضطر أهل الشرك إلى حيلة أخرى، وهى القتل الجماعى بالتجويع وهو ما نسميه نحن فى عصرنا الحالى «الحصار الاقتصادى» فقد اقترح النضر بن الحارث العبدرى

مقاطعة بنى هاشم والتضييق عليهم ومنعهم من حضور الأسواق أو البيع لهم أو الشراء منهم والنكاح منهم حتى يسلموا إليهم محمداً ﷺ، وكتبوا ذلك فى صحيفة ووقعوا عليها وعلقوها فى الكعبة المشرفة.

وجمع أبو طالب بنى هاشم وعبد المطلب فى منطقة تسمى شِعب أبى طالب وأمرهم أن يدخلوا الشعب ومعهم رسول الله ﷺ، كى يمنعوه مما أراد القوم أن يفعلوه به، كان ذلك فى العام السابع من البعثة.

وأمام هذا الإصرار من بنى هاشم فى حماية رسول الله ﷺ، مسلمهم وكافرهم، قام المشركون بضرب حصار آخر على الشعب حتى لا يدخل إليهم أحد من الناس.

لقد كانت العناية الإلهية فوق كل أذي الكفار، فقد نُصر رسول الله ﷺ بالمؤمن، والكافر، وأراد المشركون الكيد لنبى الإسلام ﷺ فلم يفلحوا وجعلهم الله الأسفلين فى آخر الأمر. ولم يكن أمر الحصار الاقتصادى والاجتماعى على رسول الله ﷺ وبنى هاشم ومن ناصره من غيرهم أمراً سهلاً يسيراً. فقد مرت الأيام والشهور واشتد الضيق، ونفذ الزاد وزاغت الأبصار وتفككت الأوصال وبكى النساء والصغار، وربط الجميع الحجارة على بطونهم من شدة الجوع، هكذا فعل النبى ﷺ ومن معه، وكذلك زوجته الصابرة خديجة -رضى الله عنها-

ولم ترحم قلوب الكفار تلك البطون الجائعة والأجساد المريضة الهزيلة، كما يحدث اليوم من حصار لبعض الدول الإسلامية من قبل الدولة العظمى الكافرة.. ولكن الله -سبحانه وتعالى- يوحى إلى رسوله ﷺ وقد مضت على تلك المقاطعة ثلاث سنوات - بأن الأرضة - وهى حشرة صغيرة - قد سلطها الله على الصحيفة الظالمة فأكلتها ولم يبقى منها سوى اسم الله

وذهب أبو طالب إلى زعماء قريش الذين وقعوا على الصحيفة يخبرهم بما أخبره به ابن أخيه ﷺ من أمر الصحيفة، وانضم إليه بعض العقلاء من أهل قريش .. فإن كان محمد صادقاً فلا داعي للمقاطعة والحصار وإن كان كاذباً فافعلوا ما يحلو لكم.

واخرجوا الصحيفة الظالمة من الكعبة المشرفة فإذا الأمر كما أخبرهم رسول الله ﷺ ولم يبق بها إلا ذكر الله.

وانتهت المقاطعة ولكن الكبر والعناد والكفر لم ينته من قلوبهم وخرج بنو هاشم من شعب أبو طالب .. وانتهت تلك المحنة الشديدة.. وقد مضى من عمر الدعوة عشر سنوات.

خديجة بنت خويلد(١)

تواري وجه الشمس وراء جبال أم القرى كعذراء تستتر في خدرها عندما قدمت القافلة من الشام. كانت تسعمائة راحلة موفرة الأحمال. فأسرع ميسرة إلى سيدة نساء قريش يبشرها بمقدم قافلتها التى تعدل قوافل مكة كلها.

نسبها :

هى خديجة بن خويلد بن أسد القرشية تزوجت عتيق بن عائذ سيد بنى مخزوم فولدت له جارية يقال لها هند فكانت تدعى بأم هند ثم خلف عليها هند بن النباش بن زرارة فولدت له هاله وهند -رجلان- وكانت تسمى الطاهرة، وكانت إمرأة تاجرة ذات شرف ومال وتضاربهم إياه بشئ تجعله لهم.

زواج خديجة أمين قريش :

كانت قريش قوما تجارا، فلما بلغ سيدة قريش عن محمد بن عبد الله ما بلغها من صدق حديثه وعظيم أمانته وكريم أخلاقه بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجرا وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار، فخرج من غلامها ميسرة.

نسى ميسرة أن يحدث الطاهرة عن الربح الوفير الذى حققه محمد بن عبدالله فى رحلته إلى الشام وأخذ يروى لها ما رآه من عجائب أثناء الرحلة فقال:

نزلنا فى ظل شجرة من صومعة الراهب نسطورا فاطلع إلىّ وقال لى :

---

(١) زوجات الرسول ﷺ - عبد العزيز الشناوى - م. الإيمان.

من هذا الرجل الذى نزل تحت هذه الشجرة ؟ فقلت له . هذا رجل من قريش من أهل الحرم فقال نسطورا: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبى -ما نزل تحت الشجرة هذه الساعة إلا نبى- ثم باع محمد سلعته التى خرجنا بها واشترى ما أراد أن يشترى ثم أقبلنا إلى مكة وبينما نحن فى الطريق إذا كانت الهاجرة واشتد الحر رأيت ملكين يظلان محمدا من الشمس وهو يسير على بعيره .

وظلت سيدة قريش شاردة تفكر فى قول غلامها ميسرة، هل وجدت ضالتها المنشودة ؟. لقد كان سادات وأشراف ورؤساء القبائل يتهافتون على الزواج منها فتأبى عليهم ذلك.

وتذكرت الطاهرة الشريفة اللبيبة يوم أن احتفل نساء أهل مكة فى عيد لهن فى رجب.. كن لا يتركن شيئا من اكبار ذلك العيد إلا أتينه. فبينما هن عاكفات عند وثن مثل لهن فى هيئة رجل حتى صار منهن قريبا ثم نادى بأعلى صوته :

- يا نساء تماء إنه سيكون فى بلدكن نبى يقال له أحمد يُبعث برسالة الله فأيما امرأة استطاعت أن تكون له زوجا فلتفعل.

وعادت خديجة بنت خويلد تربط بين حديث ميسرة وذلك الحادث ...

ورغبت الطاهرة فى الزواج من محمد بن عبد الله ... مما شاهده ميسرة من علامات النبوة.

ودخلت عليها صديقتها نفيسة بنت منبة فبعثتها دسيسا- خفية إلى محمد بعد أن رجع فى عيرها من الشام بشهرين - فقالت نفيسة

- يا محمد ما يمنعك أن تتزوج ؟ هلا تسكن إلى زوج تحنو عليك وتؤنسك وتزيل وحشتك ؟ فيم عزوفك عن الدنيا ؟

قال محمد بن عبد الله :

- ما بيدى ما أتزوج به.

قالت نفيسة بنت منية ·

فإن كفيت ذلك ودعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاية ألا تجيب ؟

فتسائل محمد بن عبد الله

- فمن هى ؟

قالت نفيسة :

- خديجـة.

فقال محمد بن عبد الله :

- وكيف لى بذلك ؟

فقالت نفيسة وهى تدق صدرها براحة يدها :

- علىَّ

فقال أمين قريش :

- فأنا أفعل.

فانطلقت نفيسة بنت منبة إلى سيدة نساء قريش وأخبرتها بما دار بينها وبين محمد فقالت الطاهرة :

- فليأت الغداة الساعة كذا وكذا.

وجاء أمين قريش فقالت خديجة بنت خويلد :

- يا ابن عم إنى قد رغبت فيك لقرابتك وسطتك - السطة : من الوسط

والوسط من أوصاف المدح والتفضيل – فى قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك.

إذهب إلى عمك – تعنى أبا طالب – فقل له : تعجل إلينا بالغداة.

فاستشار محمد بن عبد الله أعمامه .. فخرج معه عمه حمزة بن عبد المطلب حيث دخل على خديجة فخطبها إليه فتزوجها محمد بن عبد الله وكانت فى الأربعين من عمرها وأمين قريش فى الخامسة والعشرين.

وأصدقها محمد بن عبد الله عشرين بكرة – انثى الإبل – فكانت أول امرأة تزوجها أمين قريش.

ورقة بن نوفل

يتنبأ لأمين قريش بالنبوة

ذكرت الطاهرة لابن عمها ورقة بن نوفل بن أسد وكان نصرانيا قد قرأ كتب أهل الكتاب وعلم من علم الناس ما ذكر لها غلامها ميسرة من قول الراهب نسطورا وما كان يرى منه إذا كان الملكان يظلانه فقال ورقة بن نوفل :

لئن كان حقا يا خديجة إن محمدا لنبى هذه الأمة.

أولاد محمد ﷺ

من خديجة

ولدت خديجة بنت خويلد القاسم وكان به يكنى وأكبر بناته رقية ثم زينب ثم أم كلثوم ثم فاطمة.

فى غار حراء

لما قاربت سنه الأربعين حبب إليه الخلاء فكان يأخذ السويق والماء ويذهب إلي غار حراء فى شهر رمضان يطعم من جاءه من المساكين ويقضى وقته فى العبادة والتفكير فيما حوله من مشاهد الكون وفيما وراءها من قدرة مبدعة وكان مستنكرا لما عليه قومه من عقائد الشرك المهلهلة، فإذا انقضى شهر رمضان انصرف إلى الكعبة فيطوف بها سبعاً أو ما شاء الله من ذلك ثم يرجع إلى دار خديجة. وأصبح محمد بن عبد الله لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح.. فلا يشك فيها أحد كما يشك أحد فى ضياء الصبح ونوره. ومات القاسم فحزنت خديجة ومحمد.

جبريل ينزل بالوحى

رأى محمد ذات ليلة رؤيا فشق عليه ذلك فقد رأى أن قلبه قد أخرج فطهر وغسل ثم أعيد كما كان فلم يجد أحدا يخبره بذلك إلا زوجته الطاهرة فقالت :

أبشر فإن الله لم يصنع بك إلا خيراً.

ولما بلغ محمد الأربعين من عمره وكان شهر رمضان فأراد الله به ما أراد من كرامة فخرج محمد إلى غار حراء كما كان يخرج لجواره وتحنثه -تعبده- حتى إذا كانت الليلة التى أكرمه الله فيها برسالته جاءه جبريل -عليه السلام - وهو نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال :

- إقرأ.

فقال محمد : ما أقرأ؟

فضمه الملك حتى ظن محمد أنه الموت وقال : اقرأ.

فقال محمد ﷺ : ماذا أقرأ ؟

فضمه الملك حتى ظن محمد ﷺ أنه الموت ثم أرسله .. وقال : اقرأ.

فقال محمد ﷺ : ما أقرأ؟

قال الملك : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾ [العلق].

قال رسول الله ﷺ : فقرأتها ثم انتهى وانصرف عنى وهببت من نومى فكأنما كتب فى قلبى كتابا.

ولما خرج محمد ﷺ من غار حراء حتى إذا كان وسط الجبل سمع صوتا من السماء يقول :

- يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل.

فذعر محمد ﷺ وظل واقفا ينظر إليه فما تقدم وما تأخر وجعل يصرف وجهه عنه فى آفاق السماء فما نظر فى ناحية إلا رآه كذلك. وظل واقفا مكانه حتى بعثت الطاهرة رسلها فى طلبه ﷺ فبلغوا أم القرى ورجعوا إليها ومحمد ﷺ واقف فى مكانه ذلك . فانصرف الملك عنه ورجع محمد ﷺ إلى أهله.

فقالت سيدة نساء قريش :

- يا أبا القاسم أين كنت ؟ لقد بعثت رسلى فى طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إلى ...

كان رسول الله ﷺ حائرا من يحدث ؟ ليس أمامه إلا زوجته الحكيمة .. فحدثها بالذى سمع وبالذى رأى .. فقالت خديجة فى فرح :

- أبشر يا ابن العم فوالذى نفس خديجة بيده لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة. نزلت كلماتها بردا وسلاما على قلب رسول الله ﷺ فقال :

- يا خديجة والله ما أبغضت بغض هذه الأصنام شيئا ولا الكهان وانى أخشى أن أكون كاهنا.

فقالت الطاهرة فى حزم :

- كلا يا ابن العم لا تقل ذلك فإن الله لا يفعل ذلك بك أبدا انك لتصل الرحم وتصدق الحديث، وتؤدى الأمانة، وتحمل الكل - الكل : العيال والثقل والكل اليتيم والكل الذى لا ولد له ولا والد - وتكسب المعدوم وتقرى - تكرم - الضيف وتعين على نوائب - جمع نائبة وهى المصيبة - الدهر وان خلقك لكريم.

ثم قامت خديجة بنت خويلد فجمعت ثيابها عليها وانطلقت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل فأخبرته بما أخبرها رسول الله ﷺ فقال ورقة بن نوفل بن أسد:

- قدوس قدوس والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتنى يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر - صاحب سر الملك أو صاحب سر الخير وهو جبريل - عليه السلام - الذى كان يأتى موسى وإنه لنبى هذه الأمة فقولى له فليثبت .

ورجعت خديجة إلى أبى القاسم ﷺ وأخبرته بما قال ورقة بن نوفل فتسللت كلماتها إلى صدره كنسمة فى يوم كان حره كالجمر.

وجاء عتيق - أبو بكر- بن أبى قحافة إلى بيت خديجة فقد كان صديقا لمحمد ﷺ فذكرت له الطاهرة أمر رسول الله ﷺ وقالت له :

- يا عتيق اذهب مع محمد إلى ورقة بن نوفل.

فانطلق عتيق إلى النبى ﷺ .. فتسائل :

- ومن أخبرك ؟

قال عتيق بن أبى قحافة : خديجة.

وذهب رسول الله ﷺ وعتيق إلى ورقة بن نوفل فقال :

– يا محمد كيف يأتيك الذى يأتيك ؟

قال أبو القاسم ﷺ :

– يأتينى من السماء جناحاه لؤلؤ وباطن قدميه أخضر.

ثم أردف رسول الله ﷺ :

– إذا خلوت وحدى سمعت نداء خلفى : يا محمد فأنطلق هاربا فى الأرض.

فقال ورقة بن نوفل :

لا تفعل إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول لك ثم ائتنى فأخبرنى.

وعاد أبو القاسم ﷺ إلى ورقة بن نوفل فأخبره .. فقال ورقة :

– والذى نفسى بيده انك لنبى هذه الأمة وقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ولتُكَذَّبَن ولتؤذين ولتخرجن ولتقاتلن ولئن أدركت ذلك اليوم – لو امتدت بى الحياة إلى ذلك اليوم – لأنصرن الله نصراً يعلمه.

فتساءل رسول الله ﷺ :

– أو مخرجى هم – هل سيخرجه الكفار فيهاجر من مكة –؟

فأدنى ورقة بن نوفل رأس رسول الله ﷺ منه وقبل يافوخه – وسط رأسه – ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى منزله.

وانطلقت سيدة نساء قريش إلى بحيرا الراهب فسألته عن جبريل –عليه السلام– فقال بحيرا:

– قدوس قدوس ياسيدة نساء مكة أنى لك بهذا الاسم ؟

قالت الطاهرة

- بعلى - زوجى - وابن عمى محمد اخبرنى أنه يأتيه.

فقال بحيرا الراهب:

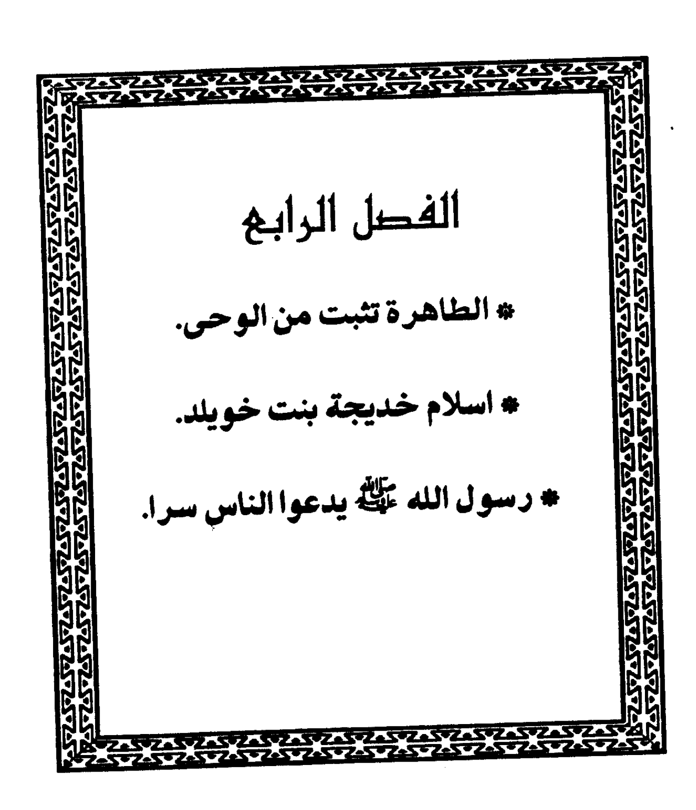
قدوس قدوس ما علم به إلا نبى مقرب فانه السفير بين الله وبين أنبيائه وأن الشيطان لا يجترئ أن يتمثل به ولا يسمى باسمه.

فحملت خديجة البشرى إلى رسول الله ﷺ ...

ولكن الوحى فتر وانقطع فترة ... فحزن رسول الله ﷺ وجل يغدو إلى رؤوس الجبال ليردى منها - ليلقى نفسه منها - فكلما أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل - عليه السلام - بين السماء والأرض فيقول له :

- انك نبى الله وأنا جبريل.

فيسكن ذلك جاش رسول الله ﷺ وترجع إليه نفسه.



الفصل الرابع

* الطاهرة تثبت من الوحى.

* اسلام خديجة بنت خويلد.

* رسول الله ﷺ يدعوا الناس سرا.



الفصل الرابع :

الطاهرة تتثبت من الوحى

قالت خديجة لرسول الله ﷺ :

- أى ابن عم أتستطيع أن تخبرنى بصاحبك هذا الذى يأتيك إذا جاءك؟

قال أبو القاسم ﷺ : نعم.

فقالت الطاهرة : فإذا جاءك فاخبرنى.

فجاء جبريل - عليه السلام - كما كان يصنع فقال أبو القاسم ﷺ :

- يا خديجة هذا جبريل قد جاءنى.

فقالت سيدة نساء قريش :

- نعم فقم يا ابن عم فاجلس على فخذى اليسرى.

فقام رسول الله ﷺ فجلس عليها .. فتساءلت : هل تراه ؟

قال محمد ﷺ : نعم.

فتحول فاجلس على فخذى اليمنى.

فتحول رسول الله ﷺ فجلس على فخذها اليمنى فقالت : هل تراه ؟

قال النبى ﷺ : نعم.

قالت الطاهرة : فتحول فاجلس فى حجرى.

فتحول أبو القاسم فجلس فى حجرها فتساءلت : هل تراه ؟

قال رسول الله ﷺ : نعم.

فتحسرت - حسر : كشف - وألقت خمارها - ورسول الله جالس فى حجرها ثم تساءلت : هل تراه ؟

قال رسول الله ﷺ : لا

فقالت خديجة بنت خويلد في فرح :

- يا ابن عم أثبت وأبشر فوالله انه الملك وما هذا بشيطان.

وذات يوم كان النبي ﷺ يمشي في شعاب مكة فرأى الملك الذي يأتيه بحراء على كرسي بين السماء والأرض فانطلق رسول الله ﷺ إلى زوجته الطاهرة مفزعا وقال لها : زملوني.

فزملته في ثياب ودثرته بها .. فجاءه جبريل - عليه السلام- وقال له :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ ﴾ [المزمل].

ورأت سيدة نساء قريش أبا القاسم ﷺ كأنه نائم ينتفض في فراشه وقد تثاقلت أنفاسه وتفصد العرق من جبينه كحبات الجمان وكأنه يصغي لأحد يناجيه.. ثم سرى عنه فقال ﷺ وكأنه يستعيد ما سمع :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ ﴾ [المدثر].

فقام رسول الله ﷺ وقال : الله أكبر.

فكبرت خديجة بنت خويلد وعلمت أنه الوحي من الله تعالى.

وخرج رسول الله ﷺ فذهب إلى ورقة بن نوفل .. فقال ورقة :

- أبشر ثم أبشر فأنا أشهد أنك الذي بشر ابن مريم وأنك على مثل ناموس موسى وأنك نبي مرسل وأنك ستؤمر بالجهاد بعد يومك هذا ولئن أدركني ذلك لأجاهدن معك. ورجع خاتم الأنبياء ﷺ إلى الطاهرة فقال لها :

- انتهى ياخديجة عهد النوم والراحة فقد أمرني جبريل أن أنذر الناس وأدعوهم إلى الله وإلى عبادته فمن أدعو ومن ذا يستجيب ؟

خلاصة القصة

اسلام خديجة بنت خويلد

قام رسول الله ﷺ للأمر العظيم الذى ينتظره والعبء الثقيل المهيأ له ففرحت القاهرة فلقد تحقق أملها وحلمها بعد أن اصطفى الواحد الأحد أبا القاسم ﷺ لرسالته فآمنت فكانت أول من آمن وقالت فى صدق وانفعال :

- أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله.

ورزق الله الطاهرة بعبد الله فسماه النبى ﷺ الطاهر والطيب.

رسول الله ﷺ يدعو الناس سرا

منذ أن أعلنت خديجة بنت خويلد : أنا أول من تدعو وأول من يستجيب أزرت رسول الله ﷺ فخفف ذلك عن نبيه.

لا يسمع شيئا مما يكرهه من رد عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك إلا فرج الله عنه بالطاهرة إذا رجع إليها تثبته عليه وتصدقه وتهون عليه أمر الناس.

وأنكر سادات قريش وكفروا بما جاء به الصادق ﷺ فكيف يقروا بما يرفعه ويخفضهم ويزلزل سلطانهم ؟

وناصبوه العداء وآذوه .. فكانت سيدة نساء قريش البلسم الشافي تهون عليه ﷺ أمر أشراف قريش.

وأتى جبريل - عليه السلام - النبى ﷺ فقال :

- يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب فإذا هى أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى وبشرها ببيت فى الجنة من قصب -من أنابيب من جوهر- لا صخب فيه ولا نصب (رواه البخارى عن أبى هريرة).

فلما جاءت سيدة نساء قريش قال لها إمام الخير ﷺ :

إن الله يقرأ على خديجة السلام.

فقالت الطاهرة:

– إن الله هو السلام وعلى جبريل السلام وعليك السلام ورحمة الله وبركاته.

وفرضت الصلاة على رسول الله ﷺ ركعتين فجاء جبريل –عليه السلام– وعلمه الصلاة وهو بأعلي مكة فهمز بعقبه فى ناحية الوادى فانفجرت منه عين فتوضأ جبريل – عليه السلام– ورسول الله ﷺ ليريه كيف الطهور للصلاة.

ثم توضأ رسول الله ﷺ كما رأى جبريل توضأ ثم قام به جبريل فصلى به وصلى رسول الله ﷺ بصلاته.

ولما انصرف جبريل – عليه السلام– أخذ رسول الله ﷺ يعلم خديجة وعليّ بن أبى طالب الوضوء والصلاة.

وجاء عفيف الكندى – ابن عم الأشعث بن قيس وأخوه لأمه – إلي مكة وهو يريد أن يبتاع لأهله فقد كان تاجرا فأتى العباس بن عبدالمطلب فبينما هو جالس ينظر إلى الكعبة وقد حلقت الشمس فى السماء إذ جاء شاب فاستقبل الكعبة ثم جاء غلام فقام عن يمينه ثم جاءت امرأة فقامت خلفهما، فركع الشاب، فركع الغلام والمرأة ثم رفعوا ثم سجدوا.

فقال عفيف الكندى : يا عباس أمر عظيم.

قال العباس بن عبد المطلب : أجل.

فتساءل عفيف الكندى : من هذا ؟

قال أبو الفضل :

– هذا محمد بن عبدالله ابن أخى وهذا الغلام على بن أخى وهذه المرأة خديجة وقد أخبرنى أن رب السموات والأرض أمره بهذا الدين، ولا والله ما على الأرض كلها أحد على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة.

يقول عفيف الكندى : فتمنيت أن أكون رابعهم.

(رواه البغوى وأبو يعلى والنسائى فى الخصائص والعقيلى فى الضعفاء).

ثم قال العباس بن عبد المطلب :

– ولم يتبعه على أمره إلا امرأته وابن عمه وهو يزعم أنه ستفتح عليه كنوز كسرى وقيصر (أخرجه البخارى فى تاريخه وابن منده عن محمد بن اسحاق).

ومات الطاهر قبل أن تكمل رضاعته فبكت خديجة فقالت لرسول الله ﷺ:

يارسول الله درت لبينة الطيب فلو عاش حتى يستكمل رضاعه لهون على.

فقال الهادى البشير ﷺ :

– إن شئت أسمعتك صوته فى الجنة.

قالت الطاهرة :

بل أصدق الله ورسوله (رواه ابن ماجه عن عبد الله بن عمر).

ووقفت سيدة نساء قريش إلى جانب رسول الله ﷺ تعينه على احتمال الشدائد وأقسى ضروب الأذى والاضطهاد. فلما ضربت قريش حصارا حول رسول الله ﷺ وبنى هاشم وبنى عبد المطلب فى شعب أبى طالب وكتبوا صحيفة قاطعة ظالمة علقت فى جوف الكعبة. فقد اتفقوا على ألا ينكحوا بنى هاشم ولا يبيعوا منهم ولا يقبلوا صلحا أبدا حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل.

وظلت خديجة بنت خويلد وبنو هاشم وبنو عبد المطلب محصورين فى شعب أبى طالب ثلاث سنين حتى أكلوا ورق الشجر وحشاش الأرض وربطوا الحجارة على بطونهم من شدة الجوع.

ولما تهاوى الحصار الظالم أمام الإيمان الصادق وخرج بنو هاشم وبنو عبدالمطلب إلى دورهم اشتكت خديجة بنت خويلد فقال لها رسول الله ﷺ :

– أتكرهين مانزل بك وقد جعل الله فى الكره خيرا فاذا قدمت عراتك – جمع ضرة وهى الزوجة الثانية – فاقرئهن منى السلام مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم – امرأة فرعون – وكليمة – حكيمة – بنت عمران أخت موسى بن عمران فقالت الطاهرة :

– بالرفاء والبنين يا رسول الله .

وتوفيت الطاهرة بعد أن مضى من النبوة سبع سنين – وقيل عشر– وكان لها حين توفيت خمس وستون سنة. فخرجوا بها من منزلها حتى دفنت بالحجون – أعلى مكة – ونزل رسول الله ﷺ فى حفرتها ولم تكن يومئذ سنة الجنازة الصلاة عليها.

الباب الثالث

الفصل الأول

* فضل خديجة بنت خويلد.
* ورقة يبشر بمحمد ﷺ .
* خديجة تطلب الزواج بمحمد ﷺ.
* نزول الوحى على رسول الله ﷺ.
* كتابة الصحيفة وما تم فيها.



الباب الثالث

الفصل الأول :

فضل خديجة بنت خويلد

تقول أم المؤمنين عائشة :

- ما حسدت أحدا ما حسدت خديجة، وما تزوجنى رسول الله ﷺ إلا بعد ما ماتت.

وذلك أن رسول الله ﷺ بشرها ببيت فى الجنة من قصب -لؤلؤ مجوف- لاصخب فيه ولا نصب (رواه النسائى والترمذى عن عائشة).

وتقول بنت أبى بكر:

- ما غرت على أحد من أزواج النبى ﷺ ماغرت على خديجة وما بى أن أكون أدركتها وماذاك إلا لكثرة ذكر رسول الله ﷺ لها، وإن كان ليذبح الشاة فيتتبع بها صدائق خديجة فيهديها لهن (رواه البخارى ومسلم والترمذى عن عائشة.

وقال ﷺ :

- خير نسائها خديجة بنت خويلد، وخير نسائها مريم ابنة عمران. (رواه الترمذى عن على).

وقال الصادق المصدوق ﷺ :

- حسبك من نساء العالمين : مريم ابنة عمران ، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وأسية امرأة فرعون. (رواه الترمذى عن أنس).

خويلد بن أسد :

كان «خويلد» بن أسد من سادة قريش. له دار واسعة بمكة، وقد رزقه الله مالا كثيرا وتجارة واسعة، وأعطاه ذرية وأولادا

وكان له من البنات « هالة ، وخديجة»

أخلاق السيدة خديجة :

أما خديجة فكانت زهرة ناضرة في بيت خويلد، يفيض وجهها بماء الشباب، وتعتز بأصلها الكريم، وهى مع ذلك طيبة القلب، رقيقة النفس، كأنها جدول الماء الصافى. وكانت تشفق على خدمها، ولا تترفع علي الفقراء من قومها، لذلك كانت محببة من الناس جميعا وكان كل شاب من قومها يتمناها زوجة له، ولكن والدها كان يغالى فى مهرها، ويطلب فيها مالا يقدر عليه إلا سيد من سادات العرب.

أحزان السيدة خديجة :

فتقدم إليها «عتيق بن عائذ» من سادة مخزوم، وتزوجها، وسعد بخديجة، وسعدت به زمانا، وما لبث أن توفى بعد أن أنجب منها طفلة.

وشعرت خديجة بألم عميق لوفاة زوجها، وأرادت أن تعيش لطفلتها، ولكن والدها رغب فى أن يزوجها، لتتسلى بزواجها الجديد عن حزنها فتقدم لها: «أبو هالة» من سادة تميم، فزوجها له أبوها. وعاشت معه أعواما رزقت منه بطفلين هالة، وهند. وما لبث زوجها الآخر أن مات.

مصاب خديجة فى والدها الحنون :

فعادت إلى خديجة أحزانها وتجددت آلامها. ثم عكفت على تربية أطفالها، وتنمية ثروتها، وكانت قد ورثت من زوجها ثروة وافرة. فأخذت تتاجر بأموالها كما تفعل قريش. وتستأجر الرجال الذين يسافرون بتجارتها إلى الشام واليمن،

وصارت تجارتها تنمو، وأرباحها تزيد عاما بعد عام، ورضيت بما قسم الله لها، ولكن الزمان عاد إلى إساءتها، فأصابها فى والدها، وفقدت خديجة أعز الناس عليها! نعم، مات خويلد، وترك خديجة أرملة ذات أطفال صغار، وإن كانت تملك ثروة واسعة، ومالا كثيراً.

وأقبل أهلها يعزونها فى مصابها بأبيها، فكانت تتلقى تعزيتهم بالصبر تارة، وبالبكاء أخرى، فقد فقدت فى والدها كل عزها ورجائها وسندها، إذ كانت تشعر فى حياته أنها طفلته، وأنه يتلقى عنها حوادث الزمان، فيعطيها من عطفه وشفقته حتى ترضى، كان والدا لها، وأبا رحيما لأطفالها، لم يشعروا فى جنبه بحرمانهم من آبائهم. والآن وقد توفى والدها شعرت خديجة بأنها صارت وحيدة فى الدنيا، وإن كان لها إخوة وأعمام.

عزاء ورقة بن نوفل لخديجة :

ودخل عليها «ورقة بن نوفل» ابن عمها، ليعزيها فى وفاة أبيها، وكان ورقة معروفا بين قومه بالفضل والعلم، فقد قرأ كتب الأنبياء، واطلع على مواعظهم، فعرف من الدين ما لم تعرفه قريش، وكره أصنامها وعبادتها. فلما دخل عليها وجدها حزينة منقبضة النفس، معتكفة فى حجرة من حجرات دارها، ودموعها تسيل على خديها، فسلم عليها ورقة ثم جلس على مقربة منها، وقال لها : لماذا تصنعين بنفسك هكذا يا خديجة؟ ليس عمى أول من مات، وليس آخر من يموت! وهل خلقنا فى هذه الحياة إلا لنفنى ؟ نحيا على الأرض فترة ثم نموت، ثم نبعث ونحيا حياة أخرى ! حياة خالدة لا موت فيها. وهناك يلتقى الأحباء، وهناك يعيش السعداء فى سعادة دائمة.

خديجة : ماذا تقول يا بن عم ؟ إنك تقول قولا غريبا! أتبشر بحياة بعد هذه الحياة، فيها يلتقى الأحباء ؟ أألقى هناك أبى وزوجى، وأحيا معهم مرة أخرى ؟

ورقة : نعم، هناك الحياة الباقية، التى لا موت بعدها، وفيها يلتقى الأحباء جميعا.

خديجة : لقد عزيتنى يابن عم فأحسنت تعزيتى، وهونت موت الأحباب على نفسى، أما قريش فعزتنى أن الآلهة قد رضيت عن أبى، ولا أظن الآلهة ترضى أو تغضب، وإنما كلمات تقولها، ولا تدرى منها شيئا. لذلك أجد لكلامك حلاوة فى نفسي، وموقعا فى قلبى، لا أجده لكلام قريش.

ورقة يعلم خديجة :

ورقة : صدقت يا خديجة. إن الأصنام لا تعرف الرضا أو الغضب، فما هى إلا تماثيل اتخذتها قريش لتضلل بها الناس. فإبراهيم الذى بنى الكعبة وأمرنا أن نطوف بها، ونعبد فيها ربنا لم يجعل فيها صنما، وقد أوصى ولده إسماعيل بأن يجعلها مكانا طاهراً، وأن يوصى ذريته بذلك. ولكن قريشا كفرت، فنسيت وصية أبيها إسماعيل، وأقامت الأصنام فى المسجد، وعبدتها من دون الله، وهى بذلك استحقت غضب الله! فإما أن تعود إلى الدين، وإما أن تكون من الهالكين.

ويحدثها عن إبراهيم - عليه السلام-

خديجة : ومن إبراهيم الذى ذكرته ياورقة ؟

ورقة : نبى من أنبياء الله، اختاره الله من بين العباد، وأنزل عليه ما يريد أن يقول للناس، فهو رسول الله إلى قومه. وأنبياء الله كثير، جاءوا من عنده بكتب منزلة، تعرف الناس الحلال والحرام، وتكشف لهم كثيرا من أمور الغيب التى لا يعرفها غير الله.

خديجة : لقد أثرت نفسى بحكمتك ياورقة، وهديتنى بعد ضلال، فليت قومى يعرفون شيئا من علمك فيهتدوا من ضلالهم! إن قومى لفى ضلال مبين!

ورقة : لست مكلفا بهدايتهم. إنما يهديهم رسول يبعثه رب العالمين.

خديجة : ألم تنته الرسل فى القرون الغابرين؟

ورقة يبشر بمحمد ﷺ :

ورقة : بقى رسول هو خاتم النبيين، بشر به موسى فى التوراة، وبشر به عيسى فى الإنجيل.

خديجة : ومتى يأتى هذا الرسول ؟ ومن أى قبيل يكون ؟

ورقة : الله وحده يعلم متى يأتى، وإن كانت لذلك علامات، وقد اقترب الآن زمانه، وإنى وعلماء إسرائيل نترقب ذلك الرسول. أما يهود فترجوا أن يكون الرسول منها خاتما لأنبيائهم، وأما أنا فأرجو أن يكون من أبناء إسماعيل، ليهدى العرب الأميين.

خديجة : أو تستحق العرب أن يرسل لها رسول؟

ورقة : وهل يرسل الرسول إلا ليزيل الضلالة، وينشر الهداية، فإذا كانت العرب أكثر الأمم ضلالا، فهى أحقهم بالرسالة والرسول.

خديجة : أرجو أن يحقق الله ظنك.

ورقة : وأرجو أن أعيش حتى أراه يهدى الناس إلي الدين، وينير الطريق للحائرين.

ثم خرج ورقة من عندها .

خديجة -رضى الله عنها- تشاور صديقتها نفيسة :

وجلست خديجة يوما تتحدث مع صديقتها نفيسة عمن تختاره من قريش ليسافربتجارتها .

فقالت : كادت قريش تسير بتجارتها إلى الشام، فلم يبق على سير القافلة إلا ليال معدودة، وأنا إلى الآن حائرة، لا أدرى من أختار؟

نفيسة : ألم يتقدم إليك أحد ليسير بها؟

خديجة : تقدم كثير، ولكن ما كل رجل أعطيه ثروتى ليكون أمينا عليها، فالأمانة صفة عزيزة لا تكون فى الناس جميعا، وإنى أعرف رجلا واحدا، لو قبل أن يسير بها لضاعفت أجره.

نفيسة : ومن ذلك الرجل السعيد ياخديجة، الذي تعطينه أربعة جمال أجراً.

خديجة : هو محمد بن عبد الله الأمين، ما تقولين فيه ؟

نفيسة : وماذا أقول فى خير شباب قريش أمانة وفضلا، وأدبا وخلقا. ما فعل قبيحا، ولا آذى شخصا، ولا شرب خمرا، ولا شارك الفتيان فى عبث ولهو. ولكنه لا يعظم أصناما كما تعظمها قريش!

خديجة : إنه يعظم الكعبة، ورب الكعبة وكفى.

نفيسة : وهل أرسلت إلى محمد؟

خديجة : لا، فإنى أستحى أن أكلمه فى هذا الأمر، وأخشى ألا يقبل.

نفيسة : لا تخافى ذلك، فإنه لا يتأخر عن السعى وراء رزقه الحلال، فليس هو من شبان قريش، المتنعمين، الذين ينامون الضحى، وإنما هو يعمل ويأكل من عمل يده، فلا يكره ما تعرضينه عليه.

خديجة ترسل صديقتها إلى محمد ﷺ للتجارة :

خديجة : إذن فاذهبى إليه، واعرضى الأمر عليه، فإن قبل أعطيتك مكافأة كبيرة

نفيسة : وما تقولين إن ذهبت إلى عمه أبى طالب، ليتوسط لنا عند محمد؟

خديجة : افعلى ما تريدين، فقد فوضت لك الأمر. وأرجو أن تفلحى فيما عزمت عليه.

نفيسة : وإنى أرجو ذلك.

نفيسة متوجه إلى أبى طالب :

وسارت نفيسة إلى بيت عمه أبى طالب، وكان محمد يسكن معه فى بيته بعد وفاة أمه وجده عبد المطلب.

فلما عرضت نفيسة الأمر على عمه، فرح أبو طالب واستبشر خيرا، ووعدها أن يحمل إلى محمد رسالة خديجة، وأن يقنعه بقبولها. وشكر خديجة وحملها تحياته إليها.

أبو طالب يستدعى محمدا ﷺ :

وبعد أن خرجت نفيسة من عنده، دعا إليه محمدا وقال له : يابن أخى، أنا رجل كما تعلم لا مآل لى، وقد اشتدالزمان علينا، وقد بلغنى أن خديجة بنت خويلد تستأجر الرجل بجملين ليتاجر لها فى أموالها، وقد سمعت بأمانتك وعفتك، فأرسلت إليك لتتاجر لها، على أن تعطيك أربعة جمال أجراً.

محمد : لا أكره ما ترضاه لى يا عم، فأنا لك سميع مطيع.

أبو طالب : أرى أن تقبل، فهذا رزق ساقه الله إليك.

محمد : الحمد والشكر لله.

محمد ﷺ يقبل العمل لدى خديجة :

ثم ذهب محمد إلى خديجة، وأظهر لها قبوله أن يتاجر لها. ورآها سيدة

كاملة محتمشة، ذات جمال وجلال، تملأ النفس بهيبتها، فأعجبه كمالها، وارتاحت نفسه للعمل معها.

ثم سافر محمد بالتجارة مع رجال قريش، وكان في صحبته ميسرة عبد خديجة، أرسلته ليخدمه في الطريق.

فلما وصل إلى الشام، تاجر محمد، ونفعته أمانته وإخلاصه، فراجت تجارته، وأقبل عليه أهل الشام يشترون كل ما معه فربح ربحا جزيلا.

خديجة -رضي الله عنها- تستقبل محمد ﷺ :

وبعد أشهر سمعت خديجة أن القافلة لم يبق على رجوعها إلى مكة إلا بضع ساعات، فرقص قلبها من الفرح، ونظفت بيتها، وأعدت فيه فرشا مريحاً، ليجلس عليه محمد عند دخوله إليها، ويقص عليها خبر رحلته، وما كسبه فيها.

ثم صعدت إلى سطح بيتها، لترقب القافلة عند دخولها، وتنظر أين محمد منها، فرأتهم يدخلون مكة ومحمد بينهم، وميسرة من ورائه. فأسرعت وفتحت بابها، تنتظر الرجل الكريم !

دخل محمد فسلم عليها، وجلس في حياء يكلمها ويحكي لها خبر تجارتها، وما لقيه في بيعه وشرائه.

ثم قدم لها كيسا مملوءا بالدنانير، وبضاعة كثيرة من بضائع الشام.

فلما أخذت الكيس، وأحست بثقل الذهب فيه، دهشت لأنها لم تر مثله من قبل ! وامتلأ قلبها سرورا، وشكرت له حسن عمله، وكامل أمانته.

ميسرة يقص على خديجة -رضي الله عنها- :

ثم استأذنها محمد ليذهب إلى أهله، فودعته بأدب وحشمة إلى عتبة بابها، ورجعت إلى «ميسرة» ليقص عليها ما رآه من محمد في سفره، وما لاقاه محمد من التعب في طريقه ، فقال ميسرة

والله ما رأيت من الرجال مثل محمد وإن الحديث عنه لعجيب.

خرجنا إلى الصحراء ونحن فى شدة الصيف وحره وأنا مشفق على محمد، أن تلفح الشمس وجهه الجميل، وتؤذيه بنارها.

فهممت بأن أقدم له ثوبا يظله، ثم نظرت إليه، فإذا هو بعيد عن الشمس، بعيد عن الحر!

خديجة : وكيف ذلك ؟!

ميسرة : رأيت فوقه سحابة لا تفارقه لحظة، إن اتجه يمنه أو يسرة أتجهت معه، وإن وقف وقفت، وإن سار سارت، كأنها مشدودة عليه بالحبال، فكنا رجال القافلة، نتلوى من الشمس الحارة، ونسبح فى عرقنا. ومحمد بيننا، كأنه تحت مظلة تظله!

خديجة : إن حديثك لعجيب حقا يا ميسرة ! ربما كانت سحابة أظلته ساعة، ثم ذهبت فى طريقها.

ميسرة : أقسم يا سيدتى ، لقد رأيتها تسير فوق رأسه من مكة حتى أوصلته بلاد الشام، ثم رجعت عليه حتى أدخلته هنا، لازمته وحده، كأنها جاءت على مقدار طوله وعرضه!

خديجة : أنت صادق يا ميسرة، فإنى رأيت وجهه يوم رجع إلي ، كيوم أن خرج، ما أثر فيه حر ولا برد.

ميسرة : وأما صحبته لى ، فما رأيه مثله، ذهبت لأخدمه، فإذا هو يخدمنى، ما آذانى بقول ولا فعل.

كان إذا مرضت مرضنى، وإذا تعبت أراحنى، وإذا غبت انتظرنى، وإذا نمت حرسنى، وإذا تكلمت استمع إلى ، وفهم منى.

يشفق علي كالوالد، ويعطيني حقي كأني أخوه، والله لقد أحببته حتى نسيت به كل الناس ، ولا أدرى كيف أصبر عنه ساعة، من ليل أو نهار ولولا أنت تملكينني يا سيدتي، لحبست نفسي على خدمته طول حياتي.

خديجة : ما أكثر حبك لمحمد يا ميسرة! اصبر، فلعل الله يجمعك به.

وأصبحت خديجة تفكر في محمد، لأن حديث ميسرة عنه شغلها طول ليلها.

غمامة تظله ! تلك غمامة عجيبة تظل رجلا عجيبا، وربح جزيل، رجع به من تجارتها لم تر مثله. فقد كان أمينا على ثروتها، فأداها إليها كاملة، وقنع بأجره القليل.

أما حديث محمد الذى استمعت إليه، فهو العذب الجميل، لا يشبع منه سامعه، وأما أخلاقه، وأما أدبه وحياؤه فلا يوجد لها نظير بين الناس !

لذلك تمنت خديجة في نفسها أن تتزوج من هذا الرجل الشريف، يكون لها وحدها، فتكسب من أخلاقه الكريمة، ويزيد في ثروتها بالتجارة.

ولكن من يتوسط لخديجة في هذا الزواج ؟ أما هي فلا تستطيع أن تخاطبه فيه !

وسكتت ساعة تفكر، ثم تذكرت صديقتها، «نفيسة» التى توسطت بينهما فى التجارة، فظنت أنها تقدر على أن تجمع شملهما، وتربط بين نفسيهما، برباط الزواج الشريف.

خديجة تطلب الزواج من محمد ﷺ :

وأرسلت إلى صاحبتها، وحدثتها بما دار في نفسها، وذهبت «نفيسة» إلي محمد، وأخذت تحدثه أحاديث مختلفة، ثم ذكرت خديجة في أثناء حديثها، فمدحها محمد، وشكر عملها. فقالت له : وما يمنعك أن تتزوج منها.

محمد : ما بيدى مال أتزوج به.

نفيسة : ولكن خديجة ترضاك، ولا تكلفك مالا.

محمد : أتظنين أنها تقبل ذلك.

نفيسة : نعم، إنها تقبل، وأنا ضامنة لقبولها.

أخذ محمد يفكر فى تلك المرأة الشريفة، التى عرضت عليه أن يتاجر لها، ويتكسب رزقه من مالها، ثم هى اليوم تعرض عليه أن يتزوجها، ولا تكلفه فى ذلك مالا.

وخديجة سيدة قريش وزهرتها، يتمنى الرجال زواجها، فتمتنع عنهم، لأنها تظن أنهم يطمعون فى مالها الوفير، ثم ترضى به وهو الرجل الفقير، لأنها ترضى بخلقه، وتقنع بفضيلته، والمرأة التى تتزوج الرجل لأخلاقه، أفضل النساء جميعاً.

نعم، إنها فى الأربعين من عمرها، وإنه فى الخامسة والعشرين. فهى تزيد عن سنه كثيرا، وقد تزوجت من قبل برجلين، وهو لم يتزوج. ولكن حاول كثير من سادة قريش أن يتزوجوا بها بعد ذلك فامتنعت عنهن. ولا يزال فيها شباب وجمال، أما كمالها فتشهد لها بذلك قريش جميعا.

فكر محمد فى هذا كله، فانتهى تفكيره إلى قبول الزواج منها، وقال: أريد من يريدنى، وأحب من يحبنى. فكيف أمتنع عن خديجة وهى سيدة قومها، وزهرة قريش جميعا. ثم ذهب محمد إلى عمه أبى طالب، وعرض عليه أمر خديجة، فسر أبو طالب كثيرا، ومدحها، وقدم لمحمد عشرين ناقة تكون مهرا لها.

والتقى فى بيت خديجة أعمام محمد وأعمامها، وخطب أبو طالب خديجة لمحمد، وألقى كلمة فى حفل زواجه، قال فيها :

أما بعد ، فإن محمدا شاب لا يوزن به فتى من قريش، إلا زاد عليه شرفا وخلقا وعقلا، وإن كان قليل المال، فالمال ظل زائل، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة فى زواجها، ولها فيه مثل ذلك. وقد ساق محمد مهرا لها عشرين ناقة. فقام عمها، وقبل زواج محمد من بنت أخيه، وأثنى على الزوجين كثيرا.

ولما انتهى العقد نحرت الذبائح، وأعطى الفقراء والأغنياء، وفتحت دار خديجة أبوابها لمن يهنئها من قومها، وانتقل محمد إليها، فضم بيتها أحسن زوجين، وأكمل حبيبين.

البيت السعيد :

وكانت دار خديجة واسعة كثيرة الحجرات بها فناء واسع، وحظائر تضم كثيرا من الإبل والغنم.

واختار محمد لنفسه حجرة بعيدة عن ضوضاء الدار، جعلها مكان خلوته وتفكره.

ووفرت خديجة له راحته، وهدوءه، فلم تشغله بعمل من صغائر الأعمال، وأفاضت عليه من حنانها وحبها ما ذكره بحنان أمه التى فقدها فى طفولته، وما عوضه عن حنان أبيه الذى لم يره بعينه.

ورأت فى محمد من الأخلاق والوفاء ما جعلها تنسي كل أحزانها، فقد أنساها بجمال صحبته الوالد الشفيق، والأخ الشقيق. وسعدت بأحسن الأزواج، وأوفي الأصحاب.

مولد القاسم بن محمد عليه السلام :

وما كانت تمر أشهر على زواجهما حتى شعرت خديجة أنها حملت من محمد، فاستبشرت خيرا، ولما أتمت حملها، ولدت ولدا. ففرح الزوجان كثيرا به،

وسمياه: «القاسم» وكأن سرور خديجة بمولده عظيما لذلك نحرت الذبائح للفقراء، وأعطت قابلتها التى أولدتها شاتين، وفتحت أبواب الدار للمهنئين والمهنئات من أقاربهم وأصدقائهم.

ثم أرسلت الغلام إلى المراضع فى البادية على عادة الأشراف من قريش. وظل الزوجان يترقبان أن يعود القاسم إليهما مملوءا صحة ونشاطا، فكان القاسم أملهما وسرورها، وموضوع حديثهما، وكان الناس ينادون محمدا منذ ولد له ولده : أبا القاسم.

وسر محمد أن يلتصق به اسم ولده، وأن يسمع اسم القاسم يتردد فى سمعه، ويصبح حديث رجال قريش وفتيانهم.

مولد زينب بنت محمد ﷺ ورضى عنها :

ولم ينقض على ذلك عام حتى وضعت «زينب» كبرى بناتها، وفرحت خديجة ببنتها كما فرحت بولدها من قبل. وأرسلتها كذلك إلى المراضع فى البادية.

وفاة القاسم -عليه السلام -

ثم سمع الزوجان بمرض القاسم، فطلباه من المرضع، فجاءهما طفلا عليلا، فاحتضنته خديجة وأخذت تعالجه بكل أنواع العلاج، واحتضنه محمد، وقلبه يرفرف عليه فى صدره! وكان المرض قد بلغ غايته من الغلام، فقبضه الله إليه بعد سنة وبضعة أشهر من مولده!.

وحزن الوالدان عليه حزنا شديدا، وكيف لا يحزنان عليه، وقد احتل القاسم من أنفسهما مكانا، وصار اسمه يتردد على مسمع أبيه وأمه كل يوم مرات؟ فكيف ينطفى مصباحه فى لحظة واحدة، ويصبح اسما، بعد أن كان اسما وجسما؟.

الحزن على القاسم :

وصبر محمد على فجيعته فى ولده، كما صبر من قبل على فجيعته فى أمه وأبيه، وأعز الناس عليه. وكذلك صبرت خديجة، وتذكرت ما قاله ورقة لها: إن الآخرة هى التى تجمع الأحباب جميعا.

زيد بن حارثة :

وأرادت أن تخفف من حزن محمد، فوهبته غلاما من مواليها اسمه «زيد بن حارثة» ليخدمه ويكون له مثل ولده.

وكان زيد غلاما أسمر اللون، نشيطا، لطيفا، تقبله النفوس، يتفانى فى حب محمد، ولا يتوانى عن خدمته ليلا أو نهاراً، وكان محمد يحبه لنشاطه فى خدمته، ويسأل عنه إذا غاب، ويعالجه إذا مرض، ويشفق عليه شفقة الوالد على ولده. فلما وهبت خديجة الغلام له ، سألها محمد :

من أين جاءك هذا الغلام؟

خديجة : اشتراه لى ابن أخى «حكيم بن حزام» من سوق عكاظ.

محمد : وهل عرفت قومه ؟

خديجة : يزعم أنه من العرب، من قبيلة «كلب».

ويقول إن بعض الأعراب اختطفوه من قومه، وباعوه.

محمد : لقد صدق الغلام، فأخلاقه أخلاق فتى من أحرار العرب، والعرب لا تبيع أولادها، ولو أعطيت مال قارون.

خديجة : أراك به مهتما به يامحمد، لقد وهبته لك، وجعلت مصيره فى يديك، فإن شئت أبقيته معك، وإن شئت أطلقته.

محمد : يفعل الله به ما يريد.

هل زيد يرغبون فى استرداده :

ولم تمض إلا أشهر حتى سمع قوم «زيد» أن ولدهم عند «محمد» بمكة. فجاءوا إليه يفتدونه بالأموال، ليردوه إليهم. ولما دخلوا مكة، بدءوا يطوفون بالكعبة، كعادة العرب، وكان محمد يجلس فى المسجد الحرام، فلما سألوا عنه دلهم الناس عليه. فأقبلوا نحوه، فرأى محمد جماعة من الأعراب عليهم شارات الغنى واليسار، وقفوا على رأسه، وقال له أحدهم : يا بن هاشم، يابن سيد قومه! أنتم أهل حرم الله وجيرانه، تطعمون الفقير، وتطلقون الأسير، جئناك فى ابننا عبدك، فأحسن إلينا فى فدائه ولا تكلفنا من الأموال مالا نطيق.

محمد : ومن هو ؟

القوم : زيد بن حارثة.

محمد : ومن أنتم ؟

القوم : نحن آباؤه وأعمامه وقومه.

محمد : ادعوه فأخيره بينى وبينكم، فإن اختاركم فخذوه، لا أريد منكم مالا، وإن اختارنى فلا يصح لى أن أفرط فيمن يختارنى.

القوم : لقد أحسنت، وزدت عما كنا نطمع فيه.

ثم أحضر زيد، فعرف قومه، وعانقهم وعانقوه وفرح قومه به فرحا شديدا .

ثم نظر إليه محمد ، وقال له : يا زيد ، أتعرف هؤلاء؟

زيد : نعم، هذا أبى، وهذا عمى وهذا فلان وفلان.

محمد : قد جاء قومك اليوم ليأخذوك إليهم، فاخترنى أو اخترهم.

زيد يختار محمدا ﷺ :

فأخذ زيد يتلفت فيهم واحدا بعد واحد، ثم تلفت إلى محمد، وعز عليه أن يفارقه بعد أن رأى منه خلقا لم يره فى أحد من الناس. فقال وقد دمعت عيناه :

لا أفضل عليك أحدا ياسيدى، فأنت أبى وأنت عمى، وأنت الناس جميعاً.

فدهش قومه، وصاحوا به : عبجا لك يا زيد! أتختار أن تكون عبدا، وترفض أن تكون حرا؟!

زيد : لقد رأيت من أخلاق هذا الرجل ما لم أره من أحد من الناس، ولو عشتم معه ورأيتم مثلى، لهان عليكم أن تفعلوا فعلى، فازداد عجبهم!

محمد ﷺ يتبنى زيدا :

ولما سمع محمد من غلامه ما سمع، أخذ بيده، وسار به حتى وقف على مجلس من مجالس قريش حول الكعبة، وقوم زيد معه، ثم قال :

يا من حضر من قريش وسائر العرب، أشهدكم أن زيدا ابنى يرثنى وأرثه، وأنه حر أمره بيده.

فلما سمع القوم ذلك، اطمأنت نفوسهم ، وقالوا لزيد : الآن طابت نفوسنا. يا زيد لا تفارق هذا الرجل فلن تجد مثله أبدا، ورجعوا إلى بلادهم يتحدثون عن محمد وفضله.

مولد رقية وأم كلثوم وفاطمة -ر ضى الله عنهمهن-

وبعد عام من مولد «زينب» ولدت خديجة لمحمد «رقية» وكانت طفلة جميلة، تشبه أمها فى كثير من هيئتها، وأرسلتها خديجة إلى البادية ثم ولدت بعد ذلك «أم كلثوم» وأعقبتها بفاطمة. وكانت فاطمة صغرى بناتها، وكانت أشبه الناس بأبيها فى شكلهاومشيتها وكلامها.

بيت محمد ﷺ :

وكان يسكن مع محمد فى بيته، هند ولد خديجة من أبى هالة، وكان يلقى هذا الطفل اليتيم من محمد ما يلقى الولد من الوالد الرحيم، فرباه محمد أكرم تربية، فلما صار رجلا كان يقول : أنا خير الناس أبا وأما، وأخا وأختا، أبي الذي رباني محمد، وأمي خديجة، وأخي القاسم، وأختي فاطمة. فمن مثلي ؟

وضم بيته أيضا على بن «أبى طالب» فإن محمد أراد أن يخفف عن عمه بعض حمله، وكان قليل المال، كثير العيال، فأخذ منه عليا، ورباه تحت عينه مع أولاده. من هؤلاء جميعا، ومن بعض الخدم والموالى، كان يتكون بيت محمد.

محمدا ﷺ يختلى فى غار حراء :

وصار حب محمد للخلوة واعتزال الناس، يزداد كلما مرت عليه الأيام، فأخذ يعتزل الناس، ويقرأ الكون فى سمائه وأرضه، ولم يكفه أن يختلى بنفسه فى داره، ويراقب السماء من بيته، بل أراد أن يسير فى أرض الله، ليرى صنع ربه ظاهرا أمام عينه، لا يشغله عنه شاغل من أهل أو زوج أو ولد.

فكان يخرج إلى جبل حراء الذى يقوم على بعد فرسخين من مكة شمالا، وينزل فى غار بهذا الجبل، ويأخذ معه من الزاد والماء ما يكفيه فى هذا الغار يوما أو أياما، قد تكون ثلاثة أو خمسة أو عشرة، وقد تمتد إلى شهر من الزمان، إذا أقبل رمضان. وعرفت خديجة هذا الغار، فكانت ترسل الرسل إلى محمد بالزاد والشراب.

تأملات محمد ﷺ :

وطالت تأملات محمد، وطال تفكره فى خالق السموات والأرض، وأضاءت نفسه من طول النظرة، واستعمال الفكرة، وأدرك أن قريشا على الباطل، وأن الله

الحق هو الذى يحرك الكون بيده، فما تشرق الشمس ولا تغيب إلا بإذنه، ولا تنبت الحبة ، ولا تثمر الشجرة إلا بإذنه.

وكثيرا ما كانت تزدحم الأفكار فى رأسه، فيهيم فى الصحراء ساعات، ثم يعود إلى خلوته.

حنو خديجة -ر ضى الله عنها-

وكانت خديجة تثبته وتزيل عنه مخاوفه، إذا أطلعها على أفكاره، أو قص عليها ما يراه فى نومه وفى يقظته، فتستمع إليه مطمئنة، ويظهر على وجهها الفرح والسرور، فإنها تتذكر حديث ورقة وقوله : «سيبعث الله نبيا يكون خاتم الأنبياء، وقد اقترب زمانه، وأن علماء بنى إسرائيل تترقبه، وتنتظر أن يكون منهم» فلماذا لا تترقبه العرب ؟ ولماذا لا يكون محمد ذلك النبى! ومحمد رجل قريش الأمين، الذى لم يقف فى حياته أمام صنم من الأصنام، لينحنى له ويقوم، كما تصنع قريش، ولم يشارك قومه فى عبث أو لهو، بل عاش حياته فى جد وعمل ومتاعب.

ولكن خديجة لا تقول لمحمد شيئا من ذلك وإنما تنظر وتترقب، وتثبت محمدا ، وتشجعه على عبادته وخلوته، وتعينه على الحياة بهذا الغار، والبقاء فيه ما شاء أن يبقى، وتبعد عنه مشاغل الحياة كلها، التى تشغل الناس جميعا، ليبقى محمد فى تفكره وتدبره، يعبد ربه ما طابت له العبادة، ويدعوه ما يحلو له الدعاء.

وطال مقام محمد بحراء مرة فأرسلت خديجة الرسل يبحثون عنه، فلم يجدوه فى الغار، ولا فى الطرق المؤدية إليه، فقلقت عليه، وخافت أن يكون قد مسه أذى، وبينما كانت تتهيأ للخروج لتبحث عنه بنفسها، إذا بمحمد يدخل عليها فى غير حالته، ويقول : زملونى ! زملونى ! فأسرعت خديجة إليه، وأخذت بيده إلى الفراش ، وغطته، فذهب فى نوم عميق، فلما صحا ، وزال عنه الخوف.

نزول الوحى على رسول الله ﷺ :

قالت له : يا أبا القاسم، أين كنت؟ فقد بعثت رسلى إليك فى كل مكان، فلم يجدوك.

فقال : لقد رأيت يا خديجة ما أفزعنى، وما جعلنى أخاف على نفسى أن أكون شاعرا، أو كاهناً، أو مجنونا، ولا أكره شيئا أكثر من هؤلاء الثلاثة.

خديجة : يحميك الله من ذلك يا أبا القاسم، ولا يخزيك أبدا. فأنت صادق الحديث، عظيم الأمانة، كريم تطعم الطعام، رحيم، تصل الأرحام، وتساعد الضعيف، وتحمل الشدائد. ومن يفعل ذلك فلن يخزيه الله أبدا، فماذا أصابت؟ وماذا رأيت ؟

محمد : لقد رأيت شيئا عظيما ! فبينا كنت أمشى فى جبل حرا، أفكر فيمن خلق الأرض والسماء، إذا بى أسمع نداء : يا محمد ! فتلفت حوالى فوجدت المكان خاليا، ليس به إنسان فمضيت فى سيرى، فسمعت النداء يعود إلى أذنى، يا محمد ! يا محمد أو كأنه يأتى من السماء، فرفعت رأسى إليها، فرأيت شيئا عجبا !.

خديجة : ماذا رأيت يابن عمى ؟

محمد ﷺ يرى جبريل -عليه السلام- :

محمد : رأيت شخصا معلقا بين السماء والأرض، يقول لى : أبشر يا محمد أنا جبريل، وأنت رسول الله إلى هذه الأمة. فأصابنى منه فزع ورعب، حتى كدت أرمى نفسى من فوق الجبل . فلما ذهبت لأفعل، نادانى : لا تفعل ذلك يا محمد، أنا جبريل، ملك من ملائكة الله، أرسلنى ربى لأبلغك أنك رسول هذه الأمة !

فرجعت أنظر إليه، فرأيته يتنزل شيئا فشيئا، حتى هبط بجانبى، واقترب منى، ومعه حريرة ضمنى بها، وقال : اقرأ، قلت : ما أنا بقارئ، وكيف أقرأ ولم أتعلم القراءة ولا الكتابة؟ ثم أخذنى فى الحريرة وضمنى بشدة.

وقال : اقرأ مرة ثانية، فقلت: ما أنا بقارئ. فتركنى ثم ضمنى ثالثة، وقال: اقرأ، فخفت أن يعيد بى مثل ذلك، فقلت : ماذا أقرأ؟

فقال جبريل : «اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذى علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم».

فقرأتها وارتفع جبريل عن الأرض، وظل يرتفع ويرتفع حتى غاب فى السماء، وأنا أنظرَ إليه يرتعش جسمى من هول ما رأيت! فلما ملكت نفسى قمت وصرت أجرى هنا وهناك! حتى جئت إليك!

خديجة : لا تخف يا بن عمى، فإن الله لا يخزيك أبدا.

وأدركت خديجة ما أصاب محمداً، فقد كاد يتحقق ظنها، وأرادت أن تتثبت من ورقة ابن عمها، فقامت ، وجمعت عليها ثيابها، وذهبت إليه لتقص عليه قصة زوجها.

وسمع ورقة حديث خديجة، فلما فرغت منه، قال لها : قدوس ! قدوس ! لئن كنت صدقتنى ياخديجة، لقد جاء الملك الأكبر الذى كان يأتى موسى، فقولى له فليثبت، ولا يخش شيئا!

ورجعت خديجة إلى محمد، فوجدته لايزال نائما فأخذت تنظر إليه فى حب وشفقة، ثم رأته قد اهتز جسمه، وسال عرقا، ثم أفاق من نومه، وقد نقش فى صدره قول ربه :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) ﴾.

فجلس محمد على فراشه، وأخذ يعيد على نفسه ما أوحى به ربه، وسمعت خديجة كلاما عجيبا، أكد قول ورقها لها، وسألته أن يعود إلى النوم ليستريح. فأجاب محمد :

قد انتهى يا خديجة عهد النوم والراحة، فقد أمرنى جبريل أن أنذر الناس، وأن أدعوهم إلى الله وإلى عبادته، فمن ذا أدعو، ومن هذا يستجيب ؟

فقالت خديجة : أنا أستجيب لك يا محمد، فادعنى قبل أن تدعو أى إنسان، وإننى أومن بربك الذى أرسلك للناس رسولا.

ورقة يلتقى بمحمد ﷺ عند الكعبة :

وأخذ ورقة يترقب محمدا، حتى عثر عليه وهو يطوف بالكعبة، فأخذه فى ناحية عن الناس، وسأله : ماذا رأيت يابن أخى، وماذا سمعت ؟ فحدثه النبى بحديثه كما شاهد وسمع.

فقال ورقة : والله الذى نفسى بيده، إنك نبى هذه الأمة، ليتنى أكون حيا حين يخرجك قومك من مكة، ويعادونك !

قال النبى : أيخرجوننى من مكة ؟

ورقة : نعم، فما جاء نبى برسالة من عند ربه إلا عاداه قومه، ولئن أدركت يومك لأنصرك نصرا كبيراً.

وانصرف رسول الله إلى خديجة، يذكر لها حديث ورقة، فأخذت تثبته وتصبره، وتهنئه بما أنعم الله عليه من النبوة.

خديجة -رضى الله عنها- تثبت من الوحى :

وأرادت خديجة أن تتأكد من أن الذى يأتيه بالوحى ملك من السماء . فقالت له

يابن عم، أتستطيع أن تخبرنى بصاحبك هذا الذى يأتيك إذا جاءك ؟

النبى : نعم.

خديجة : فإذا جاءك فأخبرنى به.

فلما جاءه جبريل ، قال : يا خديجة ، هذا جبريل قد جاء.

قالت : فقم يابن عم فاجلس على رجلى اليمنى، فجلس.

قالت : هل تراه؟ قال : نعم ؟

قالت : فتحول إلى رجلى اليسرى. ففعل.

قالت : هل تراه ؟ قال : نعم.

فكشفت خديجة عن رأسها وشعرها، ثم سألته : هل تراه الآن ؟ قال : لا.

قالت : يابن عم، إنه ملك كريم، لا شيطان رجيم، فاثبت وأبشر، ولو كان شيطانا لبقى، آمنت بالله، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله.

فكانت خديجة أول من أسلم وصدق برسول الله.

تعليم الطهارة والصلاة :

وجاء جبريل إلى النبى ﷺ فعلمه الطهارة والصلاة وعلم الرسول خديجة ما علمه جبريل.

اسلام على وزيد -رضى الله عنهما-

ودخل عليهما على بن أبى طالب مرة، فوجدهما يقومان ويسجدان، فوقف متعجبا ينظر إليهما. فلما انتهيا سألهما: ماذا تعملان؟ فأخبره محمد بدينه، وما جاء به إلى الناس، فأسلم على بن أبى طالب وكان فى الثامنة من عمره.

وأسلم كذلك زيد بن حارثة، وبذلك تم إسلام بيت محمد ﷺ .

خديجة -رضى الله عنها- تعين رسول الله على أمره :

وشرح الله صدر خديجة للدين الجديد، فكانت تشجع الرسول على أن يثبت أمام قومه، ويتحمل أذاهم بالصبر الجميل. فكان كلما حكى لها مايفعله به قومه، قالت له: اصبر يامحمد، ما جاء رسول قومه بمثل ما جئت به إلا عاداه قومه، بهذا حدثنى ورقة بن نوفل.

وكانت تساعده على خلوته، وعبادته، فإذا ذهب إلى حراء يتعبد فيه، ذهبت إليه بالطعام والشراب، وقطعت المسافة الطويلة إلى الجبل، ثم أخذت تتسلق الحجارة، حتى تصل إلى الغار، وكان ذلك فى الأيام التى اشتدت فيها العداوة بين النبى وقومه، وكانت تخاف خديجة أن تعطى الطعام لأحد من عبيدها، فيتبعه الكفار حتى يهتدوا إلى مكان محمد، فيؤذوه أو يفسدوا عليه عبادته.

جبريل -عليه السلام- يكلم خديجة :

وحدث فى يوم أن كانت خديجة تطوى الصحراء إلى محمد بحراء حاملة إليه الزاد والماء. فاقبل عليها جبريل -عليه السلم-، وقد تمثل لها رجلا، وأخذ يسألها عن محمد، فأعرضت خديجة عنه ، ولم تدله على مكانه، وخشيت أن يريد بمحمد سوءا. وسبق جبريل إلى النبى ﷺ بحراء، وقال له :

خديجة تبشر بالجنة :

«يا محمد، هذه خديجة مقبلة عليك، تحمل إليك الطعام والشراب، فإذا هى أتتك، فاقرأ عليها من ربها السلام، وبشرها ببيت فى الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب».

وجاءت خديجة فتبسم الرسول لها، وقال لها: «أبشرى ياخديجة، هذا جبريل يقرأ عليك من ربك السلام».

قالت : وقد بلغ منها الفرح غايته : الله السلام، ومنه السلام، وعلى جبريل السلام». ومن أنا يامحمد حتى يرسل الله إليّ سلامه مع ملائكته، قال الرسول: «ويبشرك ببيت فى الجنة من قصب (لؤلؤ) لا صخب فيه ولا نصب».

قالت : يبشرنى ببيت من لؤلؤ! ما أجمل بيته، وأحلى جنته! حمدا لله وشكرا.

ورجعت خديجة إلى بيتها منشرحة النفس راضية.

مولد عبد الله بن رسول الله ﷺ :

وأحست السيدة خديجة بحمل فى بطنها فى أول أيام النبوة ، ففرحت وتمنت على الله أن يكون ولدا وأعطاها الله ما تمنت، فسر أبواه به وسمياه «عبدالله» على اسم والد الرسول، ولقباه بالطاهر وبالطيب، لأنه ولد فى الإسلام. وابتهجت الأسرة كلها بقدومه، وأخذت أخواته الأربع تدلله، وحمدت خديجة الله وقد قاربت الستين من عمرها- أن أعطاها لك الغلام، وأخذت تتصدق على المحتاجين والفقراء.

وفاة عبد الله بن محمد -عليه السلام-:

ولكن الله لم يمهله طويلا، ومات عبد الله كما مات القاسم من قبل، وصبر الوالدان على فقده، واستسلما لأمر الله الذى استرد ما أعطى، وجعل الله رسوله مثلا يتعزى به من فقد الأولاد!

ومضى يوم وحن ثدى خديجة إلى طفلها، وسال منه اللبن ودخل عليها الرسول فوجدها تبكى! فسألها : ما يبكيك ؟ قالت : يا رسول الله ! درت لبينه عبد الله، فلو كان عاش حتى يستكمل رضاعته لهان فقده على!

فقال الرسول : إن له مرضعا فى الجنة، تكمل له رضاعته!

قالت لو أعلم ذلك لهان فراقه على!

قال النبى : إن شئت أسمعتك صوته فى الجنة!

قالت : بل أصدق الله ورسوله!

وكان هذا من كمال إيمانها وتمام عقلها، أن صدقت كلام الرسول وآمنت بالغيب، ولم تحوجه لأن يسمعها صوت ولدها، وتكون كالمتشككة فى قول زوجها.

ولاقى الرسول الشدائد من قريش، فخاصموه وخاصموا من اتبعه من المسلمين، ومن حماه من قومه ولو كانوا كافرين، ومنعوا عنهم الطعام والشراب، فانتقل الرسول بأهل بيته إلى ديار عمه أبى طاب، وحاصرتهم قريش فى تلك الدار ثلاثة أعوام، فجاع المسلمون، واستبد بهم الجوع، حتى ربطوا على بطونهم الأحجار، وأكلوا أوراق الأشجار، وتحملت معهم خديجة هذه الآلام على كبر سنها، وضعف قواها، وأنفقت كل أموالها فى هذا الحصار، فكانت تشترى فى السر الطعام والشراب بالثمن الغالى، وتطعم المحاصرين، وتشترى العبيد المسلمين من سادتهم الكافرين وتجعلهم أحرارا لوجه الله، وما زالت تنفق فى سبيل الله حتى أنفقت ثروتها التى جمعتها فى تجارتها، ولم تتحمل تلك السيدة من الشدائد أكثر مما تحملت، فما إن فك الحصار ورجعت إلى بيتها، حتى اشتكت المرض، وجلس النبى ﷺ إلى جنبها يواسيها، ويهون عليها مرضها، وأدركت السيدة أنها ذاهبة إلى ربها، فابتسمت إلى خالقها، وصعدت روحها إلى السماء!

وشيعها الرسول والمسلمون إلى قبرها، وهم يذكرون قول ربهم :

﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠) ﴾ .[الفجر]

كتابة الصحيفة وما تم فيها

المحرم سنة سبع من البعثة - ٦١٧م

رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلدا أصابوا به أمنا واستقراراً، وأن النجاشي قد منع وحمى من لجأ إليه، وأن عمر قد أسلم وأعلن على الناس إسلامه، ولم يرض عن استخفاء المسلمين.

المقاطعة وكتابة الصحيفة :

وإزاء ذلك كله فكرت قريش في طريقة جديدة تفسد بها علي محمد وصحبه غايتهم، وتقضي بها على المسلمين ومن يناصرهم ويتعصب لهم من بنى هاشم وبنى المطلب فاتفقت على مقاطعتهم مقاطعة تامة، فلا يتزوجون من نسائهم ولا يبيعون لهم شيئا ولا يشترون منهم ولا يخالطونهم، ولا يقبلون منهم صلحا، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل وسجلوا هذه القرارات في صحيفة ختمت بأختام وعلقت في جوف الكعبة تأكيدا لاحترامها فيكون الخروج عليها أو عدم الوفاء بما فيها بمثابة الخروج على العقيدة الموروثة.

وكانوا يعتقدون أن سياسة التجويع والمقاطعة سيكون لها من الأثر ما يحقق أغراضهم، وإزاء تلك المقاطعة الفاشمة الجائرة انتقل كل بنى هاشم وبنى المطلب ومعهم الرسول إلى شعب كان يطلق عليه «شعب أبى طالب» بظاهر مكة يعانون رالحرمان ألوانا حتى بلغ من سوء حالهم أن أكلوا أوراق الأشجار ولم يتخلف من بنى هاشم إلا أبا لهب الذى أسرف في تعصبه للأصنام، وفجر في بغضه للإسلام، فلم يرع للقرابة حرمة، ولا للرحم، مودة.

واستمرت هذه المقاطعة المروعة ثلاث سنوات متتابعة لم يجرؤ أحد منهم خلالها أن يدخل مكة

ولقد خفف عن الرسول وصحبه قسوة المقاطعة، أنها لم تنفذ على الأشهر الحرم ثم إنه كانت تصلهم فى بعض الأوقات مساعدات سرية كالتى كان يقوم بها (حكيم بن حزام) ابن أخى خديجة إذ كان يحمل إليها الطعام فى ظلام الليل إلى حيث يقيمون فى شعبهم.

وكذلك أحس بعض القرشيين بفظاعة ما ارتكبوه من ظلم وقسوة واتفقوا على نقض حلف المقاطعة، ومن هؤلاء : (هشام بن عمرو القرشى) كان يأتى بالبعير محملا بالطعام فيسير به ليلا حتى يدخله الشعب عليهم، و(زهير بن أمية) الذى ذهب فى الصباح إلى الكعبة، فطاف بالبيت، ثم نادى فى الناس «يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم وبنو المطلب هلكى ؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة» وأيده فى هذا الرأى بعض العقلاء من القوم، وجن جنون أبى جهل في ذلك الوقت وكاد نزاع يقع لولا أن أبا جهل خاف سوء العقابة فلم يفعل شيئا.

ماتم فى الصحيفة :

وعلم الرسول ﷺ أن الأرضة وهى النمل الأبيض أكلت الصحيفة ولم يبق منها إلا «باسمك اللهم» واستبشر أبو طالب خيراً مما حصل للصحيفة وعزم على الاستفادة مما حدث لها، فخرج فى عدد من بنى هاشم إلى الكعبة بين أمل يدفعه ورجاء يترقبه للخلاص من هذا الحصار والتخلص من هذه المحنة، وهناك خاطب الحاضرين من رؤساء قريش قائلا :

(وقد وصلنى أن وثيقتكم قد أكلتها الحشرات، فاكشفوا عنها حتى إذا تحقق قولى كان عليكم أن تكفوا مقاطعتكم، وإن لم يتحقق فإنى أعدكم بتسليم ابن أخى، فوافقه الحاضرون من رؤساء قريش على اقتراحه، وكشفوا عن الوثيقة فوجدوها كما قال أبو طالب قد أنمحت كل الكتابة التى كانت عليها عدا

ذكر (باسمك اللهم) فتهلل وجه أبى طالب بشرا وعمت وجوه المشركين كآبة، وأخذ كثير منهم يفكر فى صمت، وخيم عليهم حزن عميق.

ثم دخل أبو طالب بمن معه الكعبة، وتضرع إلى الله أن يرفع أذى قريش وشرها، وأن يكشف عن (محمد) وآله السوء ويخلصهم من تآمر قريش وعنادها، ثم قفل راجعا إلى الشعب.

وقد تشجع بهذه الحادثة هؤلاء الذين عقدوا النية على نقض الصحيفة، فذهبوا إلى بنى هاشم وبنى المطلب فى مكان حصارهم وطلبوا منهم أن يرجع كل إلى بيته فى مكة آمنا، وكان خروجهم فى السنة العاشرة من البعثة وكان خروجا عزيزا. إذ به تأييد الرسول أيما تأييد، وشعروا معه بأن الله يؤازر (محمدًا) وحزبه ويخذل قريشا وباطلها.

حالة الدعوة فى هذه الفترة:

كانت قريش ترجو من وراء هذه المقاطعة أن يعتزل (محمد) قومه ليصبح وحيداً ويزول خطر دعوته، ولكن الأمر كان على عكس ما فهموا فلقد ازداد المسلمون إيمانا على إيمانهم وكان النبى ﷺ فى زمن المقاطعة ينتهز فرصة أشهرالحج فيخرج لدعوة القبئل الآتية إلى مكة فذاع أمر الدين الإسلامى الجديد بين العرب وقبائلها، مماجعل الإسلام ينتشر ذكره فى شبه الجزيرة العربية بعد أن كان حبيسا بين جبال مكة، فلقد رجعت وفود الحجيج إلى بلادها تحمل خبر ظهور نبى اسمه (محمد) يدعو إلى الإسلام وترك عبادة الأصنام.

وفاة عمه أبى طالب والسيدة خديجة (ر ضى الله عنهما):

لم يتمتع رسول الله ﷺ بذلك السلام مدة طويلة من الزمن إذ لم تمض عدة شهور على انحلال حلف المقاطعة حتى فاجأت (محمداً) فى عام واحد

مفاجأتان اهتز لهما قلبه : وهما موت أبى طالب، ومن بعده زوجته السيدة خديجة (رضى الله عنها) وذلك فى العام العاشر من البعثة النبوية .

وفاة عمه أبى طالب :

كان أبو طالب بن عبد المطلب من أشد الناس دفاعاً عن رسول الله ﷺ فلقد صبر طويلا على مناصرته ووقف حياته على تأييده وحمايته، وضحى بنفسه وراحته من أجل (محمد) الداعى إلى دين يخالف دينه، كما كان درع محمد ﷺ عند البأس وحصنا له عندما تهم قريش بإيذائه، وبرداً وسلاماً عليه حين تشتعل نار العداوة والبغضاء.

فلما مرض واشتد به المرض وبلغ قريشا ذلك أخذ رؤساؤهم يفكرون ويتساءلون ماذا سيكون من أمرهم بعد وفاة أبى طالب ؟ وأخذوا يقولون إن حمزة وعمر المعروفين بشدتهما وبطشهما قد أسلما، ودعوة (محمد) قد شاعت فى قبائل قريش كلها، فذهبوا إلى أبى طالب وقالوا له : يا أبا طالب إنك منا حيث قد علمت، وقد حضرك ما ترى، وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك فادعه فخذ له منا، وخذ لنا منه، ليكف عنا ولنكف عنه، وليدعنا وديننا وندعه ودينه، وكأنهم بذلك أرادوا أن يوسطوا أبا طالب وهو فى المرحلة الأخيرة من حياته للتوفيق بينهم وبين (محمد).

ولقد جاء محمد ﷺ إلى عمه أبى طالب والقوم عنده فعرض عليه أبو طالب رغبتهم فقال ﷺ : (ياعم، كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم) فقال أبو جهل : نعم نعم وعشر كلمات.

قال: (تقولون لا إله إلا الله وتتركون ما تعبدون من دونه) فصفقوا بأيديهم ثم قالوا: أتريد يا (محمد) أن تجعل الآلهة إلها واحدا؟ إن أمرك لعجيب، ثم قاموا، فقال أبو طالب : (والله يا ابن أخى ما رأيتك سألتهم شططا).

وقد طمع النبى ﷺ فى إسلام أبى طالب خاصة بعد أن رأى منهم ما رأى، وعد أن سمع منه الكلمة الحقة : (والله يا ابن أخى ما رأيتك سألتهم شططا) وتمنى النبى إسلامه فهو الذى كفله ودافع عنه إلى آخر لحظة من حياته فقال ﷺ : (ياعم قلها) أى الشهادة، استحل لك بها الشفاعة يوم القيامة، فقال أبو طالب : لولا مخافة المنية وأن تظن قريش أنما قلتها جزعا من الموت لولا ذلك لقلتها، ومات كافرا وقد قارب الثمانين من عمره.

وطلب الرسول ﷺ الرحمة من الله - سبحانه وتعالى - والمغفرة لأبى طالب، فأنزل الله تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) ﴾ [التوبة].

وفاة السيدة خديجة - رضى الله عنها:

توفيت السيدة خديجة زوجة رسول الله ﷺ (رضى الله عنها)، فحزن عليها النبى حزناً شديدا، ولا غرابة فى ذلك فهى أول امرأة صدقت النبى فيما جاء به عن ربه، وأذهبت مخاوفه أول ما جاءه الوحى.

وتفاءلت له وبه خيرا وبددت حيرته حين ذهبت به إلى (ورقة بن نوفل) الذى بشره بأن الذى يأتيه هو ملك الوحى الذى كان يأتى الرسل من قبله فهونت عليه كل شدة وأزالت من نفسه كل خشية، ودفعت عنه الكثير من الأذى لما لها من الجاه فى عشيرتها بنى أسد. وأدخلت عليه السكينة والأمان برقة نفسها وطهارة قلبها، وقوة إيمانها، وقد استغنى الرسول ﷺ بما لها ليتفرغ إلى أعظم رسالة لهداية البشرية وكفاها فخراً وشرفاً قول رسول الله ﷺ فى بعض حديثه : (وقد آمنت بى إذ كفر الناس وصدقتنى إذ كذبنى الناس ! وواستنى بما لها إذ حرمنى الناس، ورزقنى الله ولدها إذ حرمنى أولاد النساء).

أثر وفاة أبى طالب والسيدة خديجة (رضى الله عنها):

ولقد كان لوفاة عمه (أبى طالب) وهو من عرفنا موقفه من الرسول ﷺ والسيدة خديجة -رضى الله عنها-، من الأثر ما جعل قريشاً تطمع فى الرسول، فتتابع الأذى عليه، ونالت قريش منه فاشتد به الأمر ورماه بعض سفهائهم بقاذورات ألقاها عليه وهو فى طريقه إلى بيته، ورمى آخر التراب على رأسه فرجع إلى بيته وقامت فاطمة ابنته وجعلت تغسل التراب عنه وهى تبكى فكان يقول لها : (لا تبكى يا بنية، فإن الله مانع أباك) وتعلقت به كفار قريش مرة يتجاذبونه ويقولون له أنت الذى تريد أن تجعل الآلهة إلها واحداً ؟ وكان ﷺ يقول : (والله ما نالت منى قريش شيئاً أكره حتى مات أبو طالب.

الباب الرابع

الفصل الأول

* المسيرة بعد وفاة خديجة .

* الهجرة وأسبابها.

* الهجرة النبوية .

الفصل الأول :

خروجه ﷺ إلى الطائف

ولما زاد سفه قريش واشتد به الأذى، ذهب إلى الطائف بعد موت عمه بأسبوعين تقريباً، لعله يجد من ثقيف من ينصره ويؤمن بدعوته، ولكنه لم يلق منها إلا الإعراض والإهانة، ولم يجبه إلى دعوته أحد، بل أغروا به عبيدهم وسفهاءهم يسبونه ويصيحون وراءه، ويقذفونه بالحجارة حتى ابتعد عن الطائف، فلجأ إلى حديقة «لعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة» فاحتمى بها وجلس فى ظل شجرة من (عنب) ثم رفع عليه الصلاة والسلام رأسه إلى السماء وقال :

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربى، إلى من تكلنى، إلي بعيد يتجهمنى أو إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى، ولكن عافيتك هى أوسع لى أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت به الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك».

موقف عتبة وشيبة ابنى ربيعة من النبى ﷺ :

فلما رأى ابنا ربيعة (محمدا) وقد أخذ منه التعب ونال منه الجهد تحركت فيهما نخوة الكرم، فأرسلا إليه عبدهما المسيحى (عداسا) بقطف من عنب فلما مد الرسول يده إليه قال : «بسم الله» ثم أكل، فنظر عداس إلى وجهه ثم قال : (إن هذا الكلام لا يقوله أهل هذه البلاد) وأخذا يتحدثان، ثم سأله الرسول ﷺ عن دينه وبلده فقال : نصرانى من نينوى،

قال : أمن قرية الرجل الصالح (يونس بن متى)؟ فقال له : (عداس) وما

يدريك ما يونس بن متى ؟ قال ﷺ . (ذاك أخى، أنا نبى وهو نبى) فاكب (عداس) على محمد يقبل رأسه ويديه وقدميه ولما رجع عداس إلى ابنى ربيعة قالا له: ويلك يا عداس، مالك تقبل رأس هذا الرجل. قال « ياسيدى ما فى الأرض من هو خير من هذا الرجل».

عودة الرسول ﷺ إلى مكة :

ومن حديقة (عتبة وشيبة) اتجه رسول الله ﷺ نحو مكة فلما وصلها وجد قومه أشد مما كانوا عليه من الخلاف والعناد، فلم يستطع دخولها إلا فى حماية (المطعم بن عدى) الذى تسلح هو وبنوه وتوجهوا مع رسول الله ﷺ إلى الكعبة، فطاف بالبيت، ثم انصرف إلى منزله فى حراسة المطعم وأولاده.

عرض نفسه على القبائل :

لقى رسول الله ﷺ إرهاقا شديدا من أهل مكة وثقيف فهم لم يسكتوا لحظة واحدة عن الوقوف فى سبيل الدعوة، بل لهم تهن عزائمهم فى الكيد له، حتى أنه لم يستطع أن يدخل مكة بعد عودته من الطائف إلا فى حراسة المطعم بن عدى، لذلك نراه يتجه نحو طريق آخر لعله يصل إلى ما يريد من أداء الرسالة وحمايته من أهل مكة المشركين، فأخذ يعرض نفسه فى موسم الحج على قبائل العرب ينتظرهم على أبواب الطريق الموصلة إلى مكة، ويذهب إليهم فى منازلهم.

ويسأل عن القبائل قبيلة قبيلة فى أسواقهم يدعوهم إلى الحق وإلى الطريق المستقيم، ويخبرهم أنه نبى مرسل ويطلب منهم أن يعينوه حتى يبلغ رسالة ربه، فلا يجد منهم إلا الساخر والمستمع مجرد الاستماع، والمعجب بشخصيته وبدينه دون رغبة فى اتباعه.

ومن العجب أن عمه أبا لهب لم يتركه ولم يدع القبائل تسمع له بل كان

يتبعه أينما ذهب، ويحرض الناس على الإعراض عنه، وكانت النتيجة أن قبيلة بنى حنيفة أهل مسيلمة الكذاب ردت على الرسول رداً قبيحاً، أما بنو عامر فقد طلبوا منه إن هم آمنوا به أن يجعل لهم أمر الرياسة من بعده فلما قال لهم : (إن الأمر لله يضعه حيث يشاء) انصرفوا عنه وأعرضوا كما أعرض غيرهم.

ثم عرض الإسلام على نفر من قبيلتى الأوس والخزرج سكان (يثرب) كانوا يحجون فى ذلك الموسم لكنهم وإن لم يستجيبوا له إلا أنهم تحدثوا عن هذه الدعوة بعد عودتهم إلى يثرب فتهيأت لقبولها بعض النفوس السليمة.

فلما كان موسم الحج من العام المقبل جاء وفد من الأوس والخزرج وبايعوا رسول الله ﷺ عند مكان فى منى يسمى (العقبة) ثم جاء وفد آخر فى العام الذى يليه يتكون من ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين والتقوا مع الرسول ﷺ فى نفس هذا المكان وبايعوا الرسول ﷺ على أن ينصروه ويؤازروه ويمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم وهذه هى بيعة العقبة الثانية التى كانت من أهم أسباب الهجرة النبوية المباركة.

الهجرة وأسبابها

هجرة المسلمين إلى المدينة :

لما رجع الأوس والخزرج من مكة إلى المدينة بعد البيعة الثانية أشرقت المدينة بنور الحق وانتشرت فيها مبادئ الإسلام وأصبحت مكانا مناسبا طيبا يأمن فيه المسلمون على أنفسهم من أذى المعتدين وطغيان الظالمين، أما مكة فقد اشتد فيها الأذى بالمسلمين والتضييق عليهم حتى أصبح عيشهم فيها جحيما لا يطاق، ومن أجل ذلك أمر الرسول ﷺ أصحابه بالهجرة إلى المدينة، فصاروا يتسللون ويخرجون من مكة فى ظلام الكتمان والخفاء يحذرون قريشا ويخشون خطرها ويرجون ألا تحول بينهم وبين الانتقال من هذا الوسط الخبيث وتلك البيئة الفاسدة إلى جو المدينة الطاهر الجميل.

وأول من خرج أبو سلمة المخزومى زوج أم سلمة -رضى الله عنهما-، ثم تتابع المهاجرون بعد أبى سلمة فرارا بدينهم ليتمكنوا من عبادة الله الذى امتزج حبه بنفوسهم، ولم يبق بمكة منهم إلا أبو بكر وعلى وقليلون من المستضعفين الذين لم تمكنهم أحوالهم من الهجرة.

وقد كان بقاء أبى بكر وعلىّ بأمر رسول الله ﷺ، ذلك أن أبا بكر أراد الهجرة فقال له الرسول ﷺ: على رسلك فإنى أرجو أن يؤذن لى. فقال أبو بكر: وترجو ذلك يا رسول الله بأبى أنت؟ قال: نعم فحبس أبو بكر نفسه انتظاراً لرسول الله ﷺ ليكون فى شرف صحبته وجهز راحلتين عنده استعدادا لذلك اليوم الموعود.

ولا شك أن هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة كانت مبعث سعادة نفسية كبرى لهم، لأنهم تنفسوا الصعداء وشعروا بالحرية التى لم يكونوا يألفونها، وأخذوا ينشرون دين الله فى جو طليق بعيد عن الضغط والإرهاق والظلم والعدوان.

كما كانت ضربة قاضية على المشركين فى مكة إذ خاب أملهم وأفلت المسلمون من قبضتهم وأصبحوا يتوقعون خطرا لا ريب فيه.

الهجرة النبوية

تآمر قريش على الرسول فى دار الندوة :

كانت دار قصى بن كلاب هى ندوة قريش يجتمعون فيها للنظر فيما يعنيهم من الأمور وما يصادفهم من المشكلات، ولا شك أن أمر النبى محمد ابن عبد الله ﷺ قد أصبح شغلهم الشاغل ومشكلتهم الكبرى، وعلى الأخص بعد ماتم من بيعتى العقبة وظهور الإسلام فى المدينة.

ومن أجل ذلك فإن قريشا قد اجتمعوا بدار الندوة ليتشاوروا فيما يصنعون بمحمد بن عبد الله بعد أن عظم أمره واشتد خطره.

قال قائل منهم : نخرجه من أرضنا، وننفيه إلي مكان بعيد كى نستريح منه، فرفض هذا الرأى لأنهم قالوا: إذا خرج إلى مكان آخر اجتمعت حوله الجموع لما يرونه من حلاوة منطقه وعذوبة لفظه.

وقال آخر : نوثقه ونحبسه حتى يدركه ما أدرك الشعراء قبله من الموت، فرفض هذا الرأى كذلك، لأنهم قالوا: لئن حبستموه كما تقولون ليظهرن أمره وليبلغن أصحابه وليوشك هؤلاء أن يثبوا عليكم ليخلصوا محمدا من أيديكم ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم.

وأخيرا قال أبو جهل عمرو بن هشام : والله إن لى فيه رأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد. قالوا: وما هو يا أبا الحكم ؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جلداً نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطى كل واحد منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه، فإنهم إن فعلوا

ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعاً فلا تقدر بنو هاشم على أخذ ثأره ويرضون بالدية فنعطيها لهم. وقد وقع هذا الرأى فى نفوسهم موقع الرضا والقبول فوافقوا عليه وتهيئوا للإسراع فى تنفيذه.

وهذا هو مكرهم، ولكن الله الذى يكتب ما يبيتون ويعلم ما يفعلون لم يتخل عن رسوله، فأوحى إليه بما دبره له الأعداء فى ندوتهم، وأمره بالهجرة من مكة إلى المدينة :

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) ﴾ [التوبة].

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾ [الأنفال].

أسباب الهجرة :

مما تقدم يتبين لنا أن أسباب الهجرة تتلخص فيما يأتى :

١- شدة إيذاء المشركين من قريش للرسول ﷺ وللمسلمين، وقد بلغ هذا الأذى نهايته فى الحقبة الأخيرة أى بعد وفاةالسيدة خديجة -رضى الله عنها- ووفاة أبى طالب عم الرسول ﷺ .

٢- بيعتا العقبة : وفى هاتين البيعتين وضح للرسول ﷺ أن الأوس والخزرج مخلصون له وللإسلام، وأنهم سيدافعون عنه وينصرونه وأن المدينة قد أصبحت بعد إسلام الكثيرين من الأوس والخزرج مكانا طيبا يمكن أن تنمو فيه الدعوة الإسلامية وتترعرع.

٣- المؤامرة الكبرى : وهى تلك المؤامرة التى اتفق المشركون فيها على

قتل رسول الله ﷺ والتخلص منه ليخلوا لهم الجو ويرجع المجد والسلطان لآلهتهم المزعومة، وعقائدهم الفاسدة.

كيف تمت هجرة الرسول ﷺ ؟ :

عن عائشة أم المؤمنين -رضى الله عنها- قالت : «كان لا يخطىء رسول الله ﷺ أن يأتى بيت أبى بكر أحد طرفى النهار إما بكرة وإما عشية حتى إذا كان اليوم الذى أذن الله فيه لرسوله ﷺ فى الهجرة والخروج من مكة من بين ظهرانى قومه أتانا رسول الله ﷺ بالهاجرة في ساعة كان لا يأتى فيها.

قالت: فلما رآه أبو بكر قال : ما جاء رسول الله ﷺ فى هذه الساعة إلا لأمر حدث قالت : فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره فجلس رسول الله ﷺ وليس عند أبى بكر إلا أنا وأختى أسماء بنت أبى بكر.

فقال رسول الله ﷺ : أخرج عنى من عندك، قال : يا رسول الله إنما هما ابنتاى، وما ذاك فداك أبى وأمى؟ قال : إن الله أذن لى فى الخروج والهجرة قالت : قال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله : قال الصحبة قالت فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكى من الفرح حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكى.

وقد بكى أبو بكر -رضى الله عنه- من فرط السرور، لأنه أدرك مدى النعمة التى مَنَّ الله بها عليه إذ شرفه بصحبة الرسول ﷺ فى هذا الوقت العصيب، وفى تلك الرحلة الخالدة التى ستكون حدا فاصلا بين الحق والباطل وسيتقرر بها مصير الإسلام والمسلمين.

وكان أبو بكر قد جهز راحلتين له وللرسول ﷺ ثم استأجر دليلا خبيراً بطرق الصحراء، اسمه عبد الله بن أريقط، وعلى الرغم من أن هذا الرجل كان كافرا إلا أنهما وثقا فى أمانته وإخلاصه فواعداه غار ثور بعد ثلاث ليلا.

وكانت الليلة التى خرج فيها رسول الله ﷺ من مكة فى العشر الأواخر من شهر صفر، وفى السنة الثالثة عشرة من البعثة النبوية وكان المشركون قد : ترصدوا للرسول ﷺ فى تلك الليلة وأحاطوا بداره لكى ينفذوا مؤامرتهم الغادرة.

وقد أمر رسول الله ﷺ على ابن أبى طالب رضى الله عنه أن يبيت فى مكانه، وسجاه ببردته، فكان المشركون إذا نظروا من ثقب الباب وجدوا شبحا نائما وعليه بردة الرسول فيعتقدون أنه محمد فيطمئنون ثم خرج النبى محمد - صلوات الله وسلامه عليه - على المشركين وهو يقرأ قوله تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (٩) ﴾ [يس].

فألقى الله النوم عليهم فلم يره أحد منه، ثم تقابل الرسول مع أبى بكر وسارا حتى بلغا غار ثور فاختبأ فيه ثلاث ليال حتى ينقطع الطلب عنهما وتيأس قريش من مطاردتهما.

فى غار ثور:

وصل رسول الله ﷺ إلى غار ثور ومعه صاحبه الوفى الأمين أبو بكر الصديق رضى الله عنه، وقد سبق أبو بكر رسول الله ﷺ إلى داخل الغار ليستبرئه فلما اطمأن إلى سلامته من الهوام والحشرات نادى الرسول ﷺ بالدخول ومكثا فى ذلك الغار الموحش ثلاث ليال.

وكان عبد الله بن أبى بكر قد عرف من أبيه حين الهجرة من مكة أنه سيلجأ مع النبى إلى غار ثور. فكان إذا جن الليل ينطلق إلى الغار، فيقص على رسول الله وعلى أبيه ما رآه من مشركى قريش وما سمع من تدبيرهم ثم يأتى

عامر بن فهيرة مولى أبى بكر بأغنامه، فينال الرسول وأبو بكر من ألبانها ولحومها ما يشاءان ثم يعود عبد الله بن أبى بكر ويعود عامر بالقطيع وراءه ليعفى على أثره ويعود اللاجئان إلى عزلتهما بالغار يؤنسهما الإيمان وتحيط بهما عناية الرحمن.

مطاردة المشركين للرسول ﷺ :

وقد فزع مشركو قريش لهجرة رسول الله ﷺ وخروجه من مكة أشد الفزع، فطاردوه فى كل مكان، وقعدوا له كل مرصد، وتتبعوا آثاره وآثار صاحبه حتى انتهى بهم المطاف إلى مقربة من غار ثور وقد ساورهم الشك فى أن يكون محمد وصاحبه قد لجأ إلى ذلك الغار، فأخذوا يتشاورون فيما بينهم ويتساءلون، وكان على مقربة من الغار راع، فلما رآه المشركون سألوه : هل رأيت محمدا وأبا بكر ؟ وهل تعرف أين ذهبا؟ وأجاب الراعى : قد يكونان بالغار، وإن لم أر أحدا أمه.

وسمع الرسول ﷺ وأبو بكر هذا الحديث وسمعا وقع أقدام المشركين وهم يتقدمون نحو الغار، فاستولى الخوف الشديد على أبى بكر الصديق حتى تصبب عرقا وقال يا رسول الله : لو نظر أحدهم إلى موقع قدمه لرآنا. ولكن الرسول كان يطمئنه ويقول له :

(يا أبا بكرما ظنك باثنين الله ثالثهم، يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا).

ثم تقدم واحد منهم نحو الغار. ودار حوله وأمعن النظر فيه فلم يلبث أن عاد أدراجه وسأله أصحابه : ماذا رأيت بالغار؟ فقال : إن عليه العنكبوت من قبل ميلاد محمد، فاعتقد المشركون أن الغار مهجور ورجعوا خائبين.

وهكذا تتجلى عناية الله ورعايته للرسول فى كل خطوة من خطواته وفى ذلك يقول الله عز وجل :

﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) ﴾ [التوبة].

فى الطريق إلى المدينة :

وخرج الرسول ﷺ وصاحبه من الغار بعد ثلاثة أيام وكان الدليل عبد الله بن أريقط فى انتظارهم، فسار بهما من طريق غير مألوف حتى يضلل الأعداء، ومر على أمكنة يصعب فيها السير، ولكنه اجتازها لبعدها عن الطريق المعروف فمر بعسفان، وسميت عسفان لتعسف السير فيها، ومر بالجداجد وهو مكان كثير الصخور، ومر بالعرج وهو مكان ينعرج فيه الطريق، وهكذا حتى وصل إلى «قباء» بعد رحلة فى صحراء الجزيرة العربية استمرت اثنى عشر يوما لقيا خلالها من عناء السفر ووحشة الطريق ما ينوء بالأبطال.

قال تعالى ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) ﴾ [آل عمران].

وقد أقام الرسول ﷺ أربعة أيام فى «قباء» وفيها أسس مسجدها المبارك الذى وصفه الله عز وجل بقوله :

﴿ لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) ﴾ [التوبة].

ثم غادر رسول الله ﷺ «قباء» واتجه إلى حيث كان الأوس والخزرج وهم الأنصار. يحيطون به عن يمين ويسار، وقد تقلدوا سيوفهم وامتلأت نفوسهم بالبشر والسرور، فكانت لحظات خالدة فى تاريخ المدينة. وكان يوما عظيما فى تاريخ الإسلام، وخرج النساء والصبيان فى جو من النشوة والفرح .

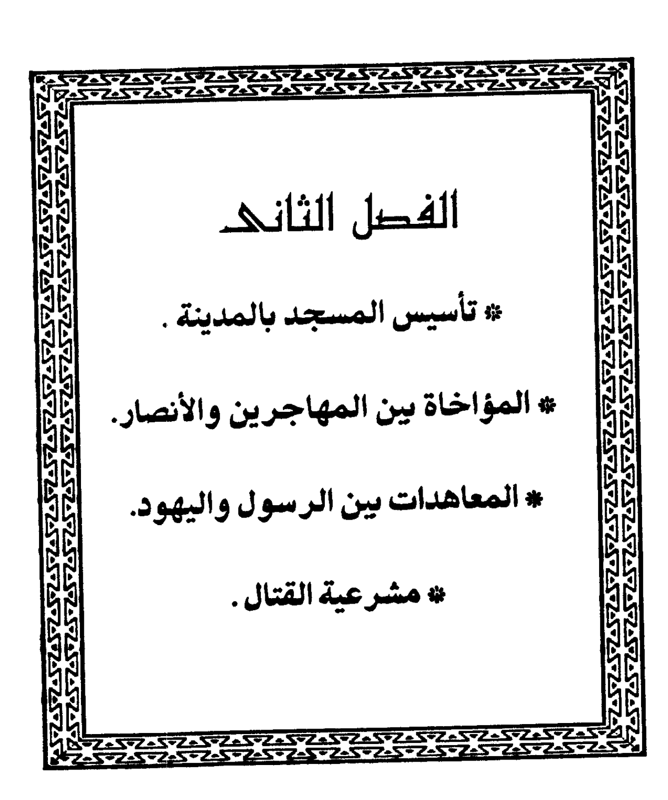
ثم سار فى المدينة فى موكب من النور، وكلما مر الرسول ﷺ على دار من دور الأنصار دعاه أهلها للنزول عندهم وأخذوا بزمام ناقته، فيقول لهم الرسول ﷺ : «دعوها فإنها مأمورة » ولم تزل سائرة حتى بركت فى محلة من محلات أخواله بنى النجار أمام دار أبى أيوب الأنصارى فقال رسول الله ﷺ «ههنا المنزل إن شاء الله».

﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٢٩) ﴾[المؤمنون].

فاحتمل أبو أيوب رحله فوضعه فى منزله وخرجت ولائد من بنى النجار يقلن :

نحن جوار من بنى النجار يا حبذا محمد من جار

فقال عليه الصلاة والسلام : «اتحببننى ؟ فقلن نعم. فقال : الله يعلم أن قلبى يحبكن». واختار عليه الصلاة والسلام النزول فى الدور الأسفل من بيت أبى أيوب ليكون أريح لزائريه، ولكن أبا أيوب -رضى الله عنه- كره ذلك وأبى إلا أن ينزل الرسول فى الطابق الأعلى إكراما وإعزازا لشأنه. وكان الأنصار يتسابقون فى إكرام الرسول ﷺ فما من ليلة إلا وعلى بابه الثلاث أو الأربع من جفان الثريد يأكل منها عليه الصلاة والسلام هو وأضيافه من الأنصار والمهاجرين.



الفصل الثاني

* تأسيس المسجد بالمدينة .
* المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.
* المعاهدات بين الرسول واليهود.
* مشرعية القتال .



الفصل الثاني :

تأسيس المسجد بالمدينة

شرع رسول الله ﷺ منذ وصل إلى المدينة فى بناء مسجده فى المكان الذى بركت فيه ناقته، وكان هذا المكان مربدا للتمر مملوكا لغلامين يتيمين فى المدينة، فدعا رسول الله ﷺ بالغلامين وطلب إليهما المربد ليتخذه مسجدا وتحدث معهما فى شرائه، فقالا : بل نهبه لك يا رسول الله فأبى عليه الصلاة والسلام أن يقبله منهما هبة ولكنه ابتاعه منهما، وكان فيه قبور المشركين وبعض حفر ونخل، فأمر رسول الله ﷺ بالقبور فنبشت، وبالحفر فسويت، وبالنخل فقطع ثم أمر بالبناء وكان بناؤه باللبن ولكن عضادتى الباب كانتا من الحجارة، وكان سقفه من الجريد وأعمدته من جذوع النخل، ولا يزيد ارتفاعه عن القامة إلا القليل وقد اشترك رسول الله ﷺ مع أصحابه فى حمل اللبنات والأحجار على كواهلهم، وكانوا يروحون على أنفسهم عناء الحمل والنقل والبناء فيرددون هذا الغناء :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة   فارحـم الأنصـار والمهاجـــرة

وقد ضاعف من حماس الصحابة فى العمل أنهم رأوا رسول الله ﷺ يعمل بنفسه كواحد منهم ويكره أن يتميز عليهم فارتجز بعضهم هذا البيت :

لئـن قعدنـا والرسـول يعمـل   لـذاك منـا العمـــل المضـلـل

وهكذا تم بناء المسجد فى جو يملؤه الإيمان وتشيع فيه الأخوة والمساواة وكان بناء متواضعا بسيطا، لأن الإسلام لا يعبأ بالمظاهر الكاذبة.

الحكمة فى أن بناء المسجد كان أول عمل للرسول فى المدينة :

وكان هذا العمل الجليل وهو بناء المسجد أول أعمال الرسول ﷺ

بالمدينة، وذلك أن المسجد هو مكان الصلة بين العبد وربه، وصلة العبد بربه هى أهم المقاصد وأسمى الغايات، وهى الأساس السليم الذى تقوم عليه العلاقة بين الأفراد والجماعات، وكذلك لم يكن المسجد موطنا للعبادة فحسب ولكنه كان محكمة للقضاء بما أنزل الله، ونزلا لاستقبال سفراء القبائل ووفود العرب. والتشاور فى مهام الأمور.

والأحاديث الواردة فى فضل المسجد النبوى كثيرة. فقد ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة -رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال : «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدى هذا، والمسجد الحرام ومسجد بيت المقدس» وجاء فى الصحيحين أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام».

وثبت كذلك فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : «ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة ومنبرى على حوض » ثم بنى بجانب المسجد حجرتين إحداهما لسودة بنت زمعة. والأخرى لعائشة بنت أبى بكر ولم يكن عليه الصلاة والسلام متزوجا غيرهما إذ ذاك. وكانت الحجرتان متجاورتين وملاصقتين للمسجد على شكل بنائه، ثم صارت الحجرات تبنى كلما تزوج الرسول على عدد زوجاته.

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

كان موقف الرسول ﷺ وأصحابه المهاجرين بعد أن تركوا وطنهم وخرجوا من ديارهم وأموالهم موقفا دقيقاً يتطلب الإخلاص والتضامن ويقتضى أن يسود بينهم وبين إخوانهم الأنصار.

وكان الأنصار وهم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان

بهم خصاصة. ولا غرو فقد شعروا بحاجة إخوانهم المهاجرين وقدروا ظروفهم العصيبة فآووهم ونصروهم وضربوا فى الإخلاص لهم والتفانى فى خدمتهم أروع الأمثال، حتى لقد وصفهم الله عز وجل بذلك الوصف الرائع حيث يقول :

﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) ﴾ [الحشر]

أى يفضلون إخوانهم المهاجرين على أنفسهم مهما كان فقرهم ومهما اشتدت حاجتهم.

وكانت سياسة الرسول ﷺ فى هذه الظروف القاسية سياسة القائد المحنك الرشيد، فقد عمل على تنظيم صفوف المسلمين وتوكيد وحدتهم فربط بينهم برباط متين، وذلك أنه عقد تلك الأخوة النادرة المثال بين الأنصار والمهاجرين، وجعل لها من الحقوق والواجبات ما لأخوة النسب فكان أبو بكر الصديق أخا لخارجة بن زهير (الأنصارى) وكان عمر بن الخطاب أختا لعتبان بن مالك (الأنصارى) وكان أبو عبيدة عامر بن الجراح أخا لسعد بن معاذ (الأنصارى) وكان عبد الرحمن بن عوف أخا لسعد بن الربيع (الأنصارى) وكان عثمان بن عفان أخا لأوس بن ثابت (الأنصارى) وهكذا أصبح المهاجرون والأنصار بنعمة الله إخواناً.

وقد أظهر الأنصار من الكرم والتسامح مع إخوانهم المهاجرين ما خفف عنهم آلام الغربة وعوضهم عن فراق الأهل والعشيرة . حتى ليروى أن سعد بن الربيع الأنصارى عرض على (أخيه) عبد الرحمن بن عوف وكان لا يملك بيثرب شيئا – أن يشاطره ماله، فأبى عبد الرحمن وطلب إليه أن يدله على السوق، وبدأ يبيع الزبد والجبن فى سوق المدينة فنما ماله واتسعت ثروته وأصبح له

قوافل تجارية عظيمة، وصنع غير عبد الرحمن من المهاجرين الذين لهم خبرة بالتجارة كما صنع عبد الرحمن فيسر الله عليهم وبارك لهم.

أما المهاجرون الذين لم تكن لهم دراية بالتجارة فقد عملوا فى أراضى الأنصار، واشتغلوا بالزراعة بطريق المزارعة مع ملاك الأرض وكانوا يلقون كثيرا من الشدة والتعب فى حياتهم ولكن يأبون أن يكونوا كلا وعالة على إخوانهم الأنصار مهما كلفهم ذلك من جهد وآلام.

المعاهدات بين الرسول واليهود

كانت المؤاخاة التى عقدها رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار فى المدينة أساسا لتقوية المسلمين وتوكيداً لوحدتهم وألفتهم، وضمانا لحياة كريمة صافية وعيشة راضية.

وكان اليهود يقيمون بجوار المسلمين فى المدينة وهم يهود بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة وكان هؤلاء اليهود أعداء للأوس والخزرج (الأنصار) قبل أن يدخلوا الإسلام، فلما دخلوا فى الإسلام قوى أمرهم بمجىء إخوانهم المهاجرين إليهم وازدادت عدواتهم وحقدهم عليهم قال تعالى :

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) ﴾ [المائدة].

فكان من سياسة الرسول ﷺ وحسن تدبيره أن يبدأ هؤلاء اليهود بالمودة ويبسط لهم يد الأخوة، ويتفق معهم على التضامن والتعاون حتى تكون المدينة كلها صفا واحدا وقوة واحدة، وحتى لا يطمع فى المدينة طامع وينال منها عدو. وقد كتب الرسول ﷺ معاهدة بين فيها حقوق المسلمين وواجباتهم وحقوق

اليهود وواجباتهم، وكان أساس هذه المعاهدة الأخوة فى السلم، والدفاع عن المدينة وقت الحرب، والتعاون التام بين الفريقين إذا نزلت شدة بأحدهما أو كليهما، وقد جاء فى هذه المعاهدة : (أن اليهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم. ومن ظلم أو أثم منهم فإنه لا يوقع (يهلك) إلا نفسه وأهل بيته، وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.

وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وأن ما كان من أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله وأن بينهم النصر على من دهم يثرب، وأن من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم، وأن الله جار لمن بر واتقى).

وقد كتب رسول الله ﷺ بعد هذه المعاهدة معاهدات خاصة مع اليهود تتجه إلى هذه الأهداف وتدور حول تلك الأغراض وقد دلت هذه المعاهدات الجليلة على سمو تفكير الرسول ﷺ وحسن سياسته فهى تقرر: حرية العقيدة وحرية وحرمة المدينة وتحريم الجرائم وتحارب الظلم والإثم، قد وضعها رسول الله ﷺ منذ قرابة أربعة عشر قرنا من الزمان، ولكنها لا تزال إلى هذا العصر الذى نعيش فيه نبراسا يهتدى به الساسة والقادة إذا اضطربت الأمور وأظلمت السبل.

ولا شك أن هذه المعاهدات الخالدة كانت ذات أثر كبير فى تقوية عزائم المسلمين وحفظ المدينة من مطامع المشركين المعتدين. ولولا أن اليهود غدروا وخانوا، ونقضوا العهود والمواثيق، وبدأوا بالعدوان على المسلمين لما وقف رسول الله والمسلمون منهم موقف العداء، ولظلت المدينة يغمرها الوئام والصفاء ولكن اليهود غدروا وخانوا وبدأوا بالعدوان فرد الرسول والمسلمون على إساءتهم وظلمهم بما جعلهم عبرة أمام القرون والأجيال، وما ظلمهم الله ولكن كانوا لأنفسهم ظالمين.

مشروعية القتال

فى مستهل القرن السابع الميلادى ظهر الإسلام فى شبه الجزيرة العربية فأشرق على العالم بمبادئه الفاضلة التى تدعو إلى الخير وتهدى للتى هى أقوم والتى تنظم العلاقة بين الأفراد والجماعات وبين الأمم والشعوب، والتى تصف مشاكل المجتمع وأدواءه ثم تقدم فى يسر وسهولة أنجع الدواء لهذه المشاكل والأدواء.

وكان العالم فى هذا الوقت يموج بالفتن، وتسود فيه نزعات خبيثة تمكن للشر والفساد، ونحل باطلة قوامها الزور والبهتان، والظلم والطغيان، ولم يكن العرب حينئذ أقرب إلى الخير من غيرهم، بل سادت فيهم العادات الضارة الهدامة، ومالوا عن دين إبراهيم الحنيف إلى عبادة الأصنام والأوثان، فكان من الطبيعى أن تصطدم مبادىء الإسلام بتلك العقائد المائلة والعادات الباطلة، من أجل ذلك فزعت القبائل العربية كل الفزع، وأخذت تحارب الدعوة الإسلامية وتقاومها بكل الوسائل فقعدت لها كل مرصد وشهرت فى وجهها كل سلاح.

وفى وسط هذه المحنة المظلمة، كان الرسول الكريم يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، ويقابل هذا العنف والطغيان بالرضا والإيمان والصبر الجميل، حتى كان يأتى له المسلمون وهم جرحى ومصابون يشكون إليه ما أصابهم فيقول : (اصبروا فإنى لم أومر بقتال).

وهكذا توالت البلايا والمحن على رسول الله وعلى المسلمين، حتى كانت المؤامرة الكبرى وأراد المشركون قتل الرسول ﷺ، فأوحى الله إليه بالهجرة من مكة إلى المدينة، فخرج من مكة آسفاً حزيناً لأنها وطنه وأحب بلاد الله إليه، وأحب بلاد الله إلى الله، وأخرج المسلمون كذلك من مكة وهى وطنهم وتركوا ديارهم وأموالهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، ومن كل ما تقدم نرى أن

الرسول والمسلمين لم يبدأوا أحدا بالقتال بل كان المشركون هم البادئين بالظلم والعدوان، ومن أجل ذلك شرع القتال فى الإسلام، وأذن الله للمسلمين بالجهاد فى سبيله ردا لما لحقهم من ظلم وما أصابهم من شر، فكانت غزوة بدر وهى التى نزل فيها قوله تعالى :

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) ﴾ [الحج].

يعنى أذن الله للمسلمين الذين يُقاتلون - أى يقاتلهم الكفار- أذن لهم فى القتال بسبب أنهم ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق.

ثم أمر الله المسلمين بالقتال إذا هوجموا من عدوهم فقال تعالى :

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) ﴾ [البقرة].

ثم أمروا بالقتال لتأمين الدعوة وإظهار قوة المسلمين حتى يدخل الناس فى دين الله دون خوف من اضطهاد أو فتنة، وحتى يطمئن الضعفاء من المسلمين على أنفسهم وأموالهم.

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) ﴾ [الأنفال].

ولما اجتمع الأحزاب والمشركون كافة على قتال المسلمين أذن الله للمسلمين بقتال المشركين كافة فنزل قوله تعالى :

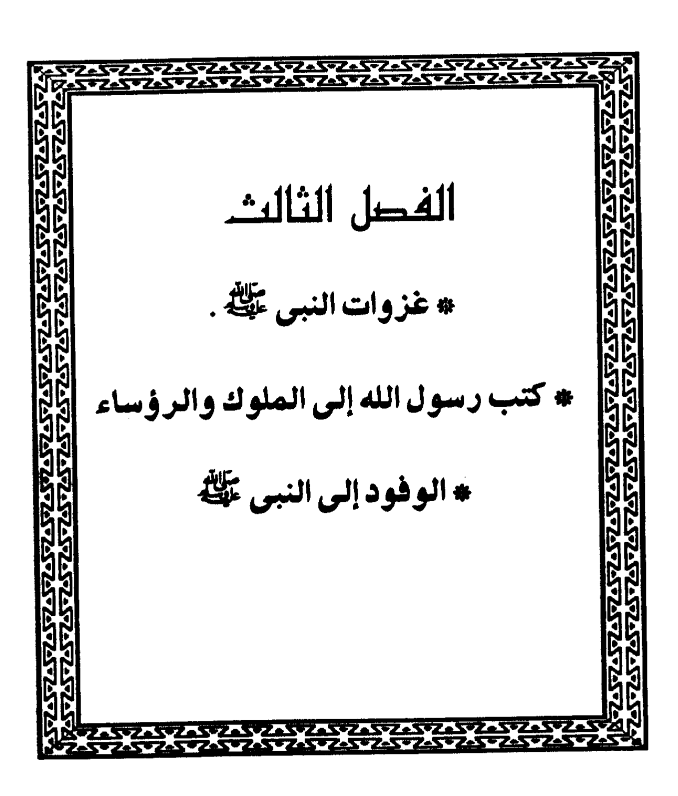
﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦)﴾ [التوبة].

وبهذا يتبين لها أن القتال قد شرع فى الإسلام للأسباب الآتية :

١- لرد الظلم والعدوان الذى أصاب المسلمين.

٢- لتأمين الدعوة الإسلامية وتدعيم هيبتها حتى تلقي الرعب فى قلوب الأعداء ويدخل فى دين الله من يشاء، وعلى هذا الأساس كانت غزوات الرسول ﷺ جميعها، فلما لحق الرسول بالرفيق الأعلى سار خلفاؤه على ذلك المنهج القويم، فكانت الحروب فى البلاد التى فتحها المسلمون للجهاد فى سبيل الله ولتأمين الدعوة الإسلامية وتبليغها للناس وهم فى جو آمن وبيئة صالحة.

وقد أخذت تلك الدعوة الكريمة -بحمد الله- مجراها فى قلوب الناس وانسابت بين الأمم تحيي الموات وتؤتى أطيب الثمرات.



الفصل الثالث

* غزوات النبى ﷺ .

* كتب رسول الله إلى الملوك والرؤساء

* الوفود إلى النبى ﷺ

الفصل الثالث :

غزوات النبى ﷺ

كان المهاجرون من المسلمين يحنون دائما إلى مكة. ويتطلعون إلى قريش التى فرقت بينهم وبين أهلهم وأخرجتهم من ديارهم وأموالهم بغير حق، فتثور نفوسهم ألما لهذا الحق المسلوب والكرامة المضيعة، ويودون أن تتهيأ لهم الفرصة ليغسلوا عن أنفسهم ما علق بها من عار وصغار.

وفى هذه الفترة كانت الأوضاع قد استقرت فى المدينة على أساس الأخوة والتعاون فالأنصار من الأوس والخزرج يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتو ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة

والمهاجرون يعيشون فى ظل وارف من إخلاص إخوانهم الأنصار فيعوضهم ذلك عن الكثير مما فقدوه.. والمسلمون جميعا يشعرون بالقوة بعد المعاهدات التى تمت بينهم وبين اليهود: وهى تلك التى تقوم على الأخوة في السلم. والدفاع عن المدينة فى وقت الحرب والتضامن التام بين الفريقين إذا نزلت شدة بأحدهما أو كليهما.

ومن أجل ذلك بدأ المسلمون – وقد شعروا بالقوة – يفكرون في رد الظلم الذى أصابهم والعدوان الذى وقع عليهم، فجاء العدل الإلهى الذى استبشر به المسلمون ونزل قوله تعالى :

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج].

فكان ذلك أمرا من الله لرسوله بالقتال، وبدأت غزوات النبى ﷺ للكفار والمشركين.

كتب رسول الله ﷺ

إلى الملوك والرؤساء

١- كتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم :

«من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم».

«أما بعد، فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن تتول فإن إثم الأكارين(١) عليك».

فلما ترجم له الكتاب، وهو دعوة واضحة للدخول فى الإسلام، لم يغضب ولم تثر ثائرته. بل رد على الرسالة رداً حسنا جميلا.

٢- كتاب الرسول ﷺ إلى كسرى ملك الفرس :

وفى أوائل السنة الرابعة من الهجرة حمل عبد الله بن حذافة السهمى كتاب النبى ﷺ إلى «المدائن» عاصمة الفرس فلما وصلها سلم الكتاب إلى كسرى ونصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

«من محمد رسول الله، إلى كسرى عظيم فارس»

«سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلى الناس كافة، لينذر من كان حيا، أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم المجوس».

فلما ترجم الكتاب له وعرف أن «محمدا» ﷺ يدعوه إلى الإسلام استشاط غضبا، ومزق الكتاب وصرف الرسول.

---

(١) وفى رواية أخرى الأريين - أي الشعب المنقاد

فلما علم النبى ﷺ بما فعل كسرى بكتابه قال : «مزق الله ملكه»، واستجاب الله - سبحانه وتعالى - لدعوة نبيه ﷺ فتمزق ملك كسرى، واستولى المسلمون على خزائنهم وأموالهم فى خلافة عمر رضى الله عنه.

٣- كتاب رسول الله ﷺ إلى المقوقس بمصر:

بعث رسول الله ﷺ حاطب بن أبى بلتعة، بكتاب إلي المقوقس، حاكم مصر باسم الدولة الرومانية - هذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

« من محمد بن عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط» :

« سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم القبط».

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [آل عمران].

وقد سار حاطب» بالكتاب حتى قدم المقوقس فى الاسكندرية فسلمه كتاب رسول الله ﷺ فضمه إلى صدره، ووضعه في حق من عاج، واستقبل حاطبا بما يستحق من إكرام، ثم رده مزودا بهدايا قيمة:

جاريتين : «مارية» التى اصطفاها النبى ﷺ لنفسه «وسيرين» التى أهديت لحسان بن ثابت.

وبغلة بيضاء : سميت دلدل.

وحمار أشهب : سمى يعفور.

ومقدار من المال وجرة عسل وجرة زيت

ولم يُسلم المقوقس، ويظهر أنه خاف على مُلك مصر إذا اعتنق ديناً يخالف دين الدولة التابع لها.

٤- كتاب رسول الله ﷺ إلى النجاشى ملك الحبشة :

بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمرى، بكتاب إلى النجاشى فسلمه فى عاصمة ملكه - وهذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

«سلم أنت، فإننى أحمد إليك الله : الملك القدوس السلام، المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه، وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له. والموالاة على طاعته، وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى، فإنى رسول الله، وقد بعثت إليك ابن عمى جعفراً ونفراً معه من المسلمين فإذا جاءوك فاقرهم ودع التجبر، فإنى أدعوك وجنودك إلى الله، فقد بلغت ونصحت واقبلوا نصحى، والسلام على من اتبع الهدى».

وكان طبيعيا أن يكون رده حسنا، لأن الصلات بين المسلمين والنجاشى كانت طيبة، فهو الذى أوى المهاجرين إلى بلاده وسمح لهم بالإقامة فى عز وكرامة، فلما وصل إليه الكتاب وضعه بين عينيه ثم أسلم.

أما أمراء العرب ممن أرسل إليهم النبى ﷺ فقد رد بعضهم رداً سيئا والآخر كان ردا حسنا وأسلم.

نتيجة إرسال الرسل :

لاشك فى أن إرسال هؤلاء الرسل يدل على سياسة رشيدة وشجاعة عظيمة للرسول ﷺ ولذلك كانت نتائجها ما يلى

١- لم يتألب هؤلاء الملوك - وهم أعظم قوة فى الأرض - على رسول الله ﷺ بل لمسنا من إجابة أكثرهم رقة وعطفا مما زاد المسلمين إيمانا على إيمانهم.

٢- عرف الرسول ﷺ سياسة هؤلاء الملوك نحوه فكانت هذه الكتب بمثابة معرفة لرأيهم.

٣- إسلام النجاشى.

٤- أن المقوقس وإن كان لم يسلم إلا أنه أظهر الود بإرساله الهدايا للرسول ﷺ .

الوفود إلى النبى ﷺ

بعد غزوة «تبوك»، وبعد أن تمت كلمة ربك الحسنى فى شبه الجزيرة العربية، وامتد نفوذ الإسلام شمالا وجنوبا، أخذ المشركون يفكرون فى أمرهم، فرأت القبائل التى لاتزال على جاهليتها أن من الخير لها أن تهرع إلى «محمد» ﷺ لتقدم ولاءها وتعلن عن إسلامها. واشتهرت السنة العاشرة من الهجرة بعام الوفود.

١- وفد ثقيف بالطائف :

كان عروة بن مسعود أحد سادة ثقيف بالطائف غائبا زمن حصار النبى ﷺ، فلما عاد، ووقف على أخبار النبى ﷺ وانتصاراته أسرع إلى المدينة فأعلن إسلامه وأخذ على نفسه دعوة أهل الطائف للإسلام، ثم عاد إلى الطائف ودعا إلى التوحيد فقتله قومه.

لكن بعد مقتله رأت ثقيف أن القبائل المحيطة بها قد أسلمت، وأن ما حدث منها كان تهورا، فمصيرهم على هذا الوضع سيؤدى بهم إلى الفناء - لهذا

قرروا إرسال وفد إلى النبى ﷺ يعرض عليه صلح ثقيف. وذهب الوفد إلى المدينة وعرضوا على الرسول قبولهم الإسلام، على شرط أن يدع لهم صنمهم «اللات» وأن يعفيهم من الصلاة فأبى الرسول إباء لا تردد فيه ولا هوادة فنزل الثقيفيون على رأى رسول الله، ثم عادوا إلى بلادهم وبعث معهم جماعة من المسلمين لهدم أصنامهم ونشر الإسلام بينهم.

٢- وفد بنى حنيفة :

وقصد بنو حنيفة : رسول الله ﷺ فى المدينة ومعهم مسيلمة بن حبيب الحنفى (الكذاب) فطلب من النبى ﷺ أن يشركه معه فى النبوة، فقوبل بالرفض، وأسلم الوفد الذى كان معه. أما هو فقد ادعى النبوة، ورفع عن قومه الصلاة وأحل لهم الخمر والزنا ترغيبا لهم فى اتباعه، وقاتل المسلمين بعد ذلك فى حروب الردة حتى قتل.

٣- وفود اليمانيين فى المدينة :

استقبل النبى ﷺ وفودا عديدة من بلاد اليمن منها:

وفد الأشعريين، قوم أبى موسى الأشعرى، أسلموا وبايعوا وقال الرسول فى حقهم : «أتاكم أهل اليمن كأنهم السحاب وهم خيار من فى الأرض».

٤- وفد حضرموت :

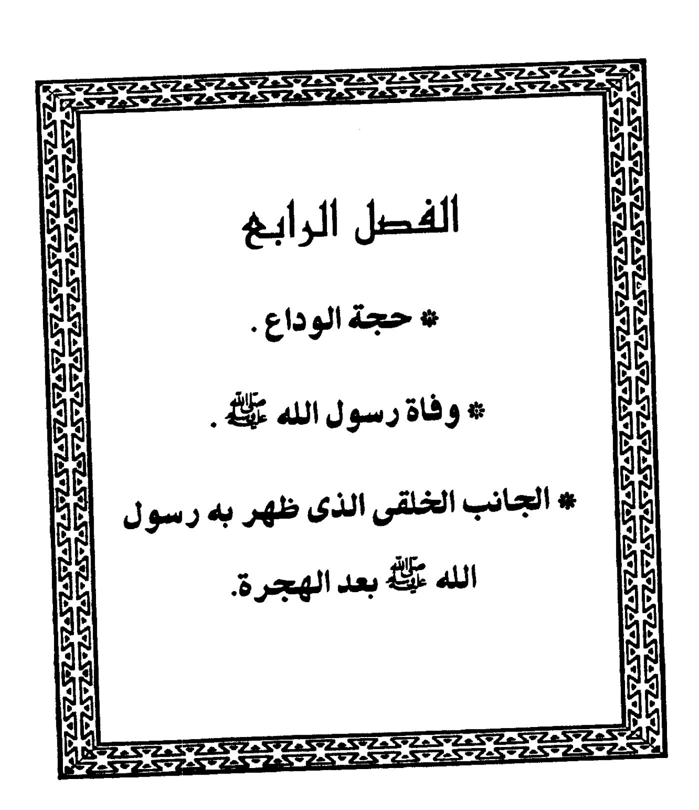
وجاء إلى المدينة وفود من حضرموت، فاستقبلهم النبى ﷺ استقبالا حسنا، فأعلنوا إسلامهم، وأرسل معهم من يجمع منهم الزكاة.

وهكذا انتشر الإسلام فى اليمن وحضرموت، ودخل هذا القسم الكبير فى الدين الإسلامى.

٥- وفود البحرين وعمان :

قدم إلى المدينة فى السنة التاسعة وفود من البحرين ومن عمان وبايعوا النبى ﷺ فأسلموا وصح إسلامهم وعادوا إلى بلادهم.

وهكذا أخذت وفود البلاد العربية من الشمال إلي الجنوب تتوارد من كل صوب قاصدة المدينة لتبايع رسول الله ﷺ ولتعلن الطاعة والتدين بالإسلام وتدفع عنه بالنفس والمال.



الفصل الرابع

* حجة الوداع .

* وفاة رسول الله ﷺ .

* الجانب الخلقى الذى ظهر به رسول الله ﷺ بعد الهجرة.



الفصل الرابع :

حجة الوداع

سنة ١٠هـ، سنة ٦٣٢م

أقبل شهر ذى القعدة من السنة العاشرة للهجرة، ولم يكن رسول الله ﷺ قد أدى فريضة الحج، والمسلمون فى حاجة إلى من يرشدهم عمليا إلى مناسكه، لهذا دعا الرسول ﷺ الناس إلى الحج معه، فأقبلوا جماعات إلى المدينة حتى بلغ عددهم مائة ألف أو يزيدون.

وفى اليوم الخامس والعشرين من شهر ذى القعدة تحرك ركب الحجاج من المدينة فى فرحة شاملة وأمامهم الرسول ﷺ إلى بيت الله الحرام، فلما وصلوا «ذا الحليفة» باتوا بها وفى الصباح أحرم النبى ﷺ وأحرم المسلمون، فنزعوا المخيط، ولبسوا ملابس الإحرام وتوجه الرسول ﷺ إلى الله والمسلمون من ورائه داعين: (لبيك اللهم لبيك. لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لاشريك لك) فتجاوب فى نواحى الصحراء صداها حتى وصلوا مكة فى اليوم الرابع من ذى الحجة، فتوجه الرسول والمسلمون إلى الكعبة، فاستلم ﷺ الحجر الأسود وقبله وطاف بالبيت سبعا ثم سعى بين الصفا والمروة سبعا، ثم ذهب إلى «منى» ومنها إلى جبل عرفات، فأقيمت له خيمة فاستراح حتى زالت الشمس ثم ركب ناقته القصواء ونادى فى الناس بصوت مرتفع يردده من بعده «ربيعة بن أمية بن خلف» قائلا بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

«أيها الناس. اسمعوا قولى هذا فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا».

«أيها الناس. إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة

يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من أئتمنه عليها».

«وإن كل ربا موضوع ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون» إلي أن قال :

«أما بعد أيها الناس، فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبدا، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم».

أيا الناس : ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧) ﴾ [التوبة].

«وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية، ورجب الفرد الذى بين جمادى وشعبان».

«أما بعد أيها الناس : فإن لكم على نسائكم حقا ولهن عليكم حقا ألا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن تهجرونهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيرا فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهم شيئا وأنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله».

«فاعقلوا أيها الناس قولى، فإنى قد بلغت، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا أمرا بينا، كتاب الله وسنة رسوله».

«أيها الناس : استمعوا قولى واعقلوه : تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين أخوة، فلا يحل لامرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن أنفسكم». (اللهم هل بلغت) ؟

فأجاب الناس : نعم.

فقال ﷺ : (اللهم اشهد)

ثم ترك الرسول عرفات وقضى ليلة بالمزدلفة، ثم ذهب إلى منى، ورمى فى طريقه إليها الجمرات، ثم نحر الهدى. وحلق رأسه، وبذلك قد أتم حجه وعلم الناس مناسكهم، وما فرض الله عليهم، ثم عاد إلى المدينة بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة، وبين للناس معالم الحلال والحرام، وأكد حرمة الدماء والأعراض والأموال، وأوصى بالنساء خيرا فى خطبته الخالدة الجامعة وأعلن عن رب العزة:

قال تعالى :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣) ﴾ [المائدة].

وفاة رسول الله ﷺ

سنة ١١هـ - سنة ٦٣٣م

مرض رسول الله ﷺ فى أواخر صفر سنة ١١ هـ واشتد عليه المرض حتى أغمى عليه ورأسه فى حجر عائشة -رضى الله عنها- وكانت تدعو له بالشفاء، وكان يقول : «إن للموت لسكرات» قالت فاطمة لما تغشاه الكرب : «واكرب أبتاه»، فقال : لا كرب على أبيك بعد اليوم».

وفى صباح يوم الاثنين الثانى عشر من ربيع الأول سنة ١١ هـ قبض النبى ﷺ إلى رحمة ربه وهو فى الثالثة والستين من عمره، قضى منها ٢٣ سنة يجاهد فى تبليغ الرسالة ونشر الدعوة، فأدرك من التوفيق والنجاح ما قرت به عينه وعين البشرية.

فقد جاء بدين هو أفضل الديانات وأكملها، وسن شريعة أجمع الباحثون على أنها أرقى شريعة سماوية عرفها البشر فى تاريخهم، وأسس هيئة اجتماعية على دعائم ثابتة من الإخاء والمساواة والحرية، لا فضل لأحد فيها على أحد إلا بالتقوى قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) ﴾ [الحجرات].

فصلوات الله وسلامه عليك يا رسول الله بقدر ما جاهدت لإنقاذ الإنسانية وإقالتها من عثراتها، وإقامتها على المحجة الواضحة.

وحمدا لله إذ جعلنا الوارثين لهذا الدين الحنيف، وجعلنا به خير أمة أخرجت للناس. تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله.

الجانب الخلقى الذى ظهر به
رسول الله ﷺ بعد الهجرة

كانت أخلاق الرسول ﷺ صورة ناطقة بالسمو والكمال، وهى فى حقيقتها لم تتغير باختلاف الأزمان وتنوع الظروف والأحداث. ولكن كانت تظهر منها جوانب خاصة قبل الهجرة تقتضيها الظروف. وجوانب خاصة بعد الهجرة تقتضيها الظروف كذلك، وهى جميعها تنبثق من معين كريم وتتجه إلى غاية نبيلة.

وسنتحدث الآن عن بعض النواحى الخلقية التى ظهر بها - صلوات الله وسلامه عليه - بعد الهجرة.

الشجاعة

روى عن على بن أبى طالب -رضى الله عنه- قال: (كنا إذا حمى البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه).

وكانت شجاعته -عليه السلام- تقوم على الإيمان الكامل، فلم تنقص منها الحوادث والأزمان شيئا بل كانت تزيدها ثباتا وقوة وما من شجاع ليس له زلة سوى رسول الله ﷺ .

ولقد وقف يوم حنين حينما ولى عنه المسلمون وفروا مدبرين، وقف كالطود الراسخ يهتف فى شجاعة مؤمنة قائلا :

أنا النبى لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

فاستطاع بذلك أن يعيد المسلمين إلى الإقبال بعد الإدبار، وأتى النصر بعد الهزيمة، وكذلك كان فى سائر حروبه وغزواته المثل الأعلى للشجاعة الفائقة، والبطولة النادرة

السياسة

كانت سياسة الرسول ﷺ تنبثق عن عقل راجح وتفكير سليم وخبرة كاملة بطبائع الناس وأحوالهم، ولا غرو فقد صنعه الله علي عينه، وأمده فى كل وقت وحين برعايته وعونه.

ولا شك أن تاريخ الرسول كله صور متتابعة وأمثلة متنوعة للسياسة الحكيمة الرشيدة التى جعلت من المسلمين فى وقت قصير أمة عظيمة الشأن قوية البنيان، والتى يجب أن يستضىء بها الزعماء والمصلحون على توالى الأجيال والقرون.

وهذه بعض الأمثلة لتلك السياسة الرشيدة :

١- فحينما استقر الرسول ﷺ بالمدينة آخى بين المهاجرين والأنصار، فكانت تلك الأخوة أساس التعاون بين الأنصار -وهم الذين تبوءوا الدار والإيمان -والمهاجرين- وهم الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق- وقد أثمر هذا التعاون ثمرته الطيبة المباركة فأغنى الله المهاجرين وعوضهم خير العوض عما فقدوه.

٢- ثم عقد الرسول عهدا بين المسلمين واليهود، ويعتبر هذا العهد وثيقة سياسية رائعة، وكان أساسه الأخوة فى السلم والدفاع عن المدينة في وقت الحرب، والتعاون التام بين الفريقين إذا نزلت شدة بأحدهما أو كليهما. وقد أمن الرسول بهذا العهد الجبهة الداخلية ليتفرغ للأعداء خارج المدينة واستفاد المسلمون من هذا العهد فى أحرج الظروف وظهرت منه حصافة الرسول ﷺ وبعد نظره.

٣- شروط قريش فى صلح الحديبية وبعد نظره ﷺ نحوها:

وقد ظن عمر -رضى الله عنه- أن فى ذلك إجحافا بحقوق المسلمين ولقد عاتب الرسول فى ذلك، ولكن الأيام أظهرت حسن سياسة الرسول ﷺ فكان صلح الحديبية أساسا لفتح مكة. ولذا سمى الله الصلح بالفتح المبين.

٤- وفى يوم الفتح الأعظم وضحت السياسة الرشيدة للرسول ﷺ فقد أمكنه الله من قريش وهى العدو الألد فقابل إساءاتها بالإحسان وجازاها عن ظلمها بالعفو والغفران. وقد نجحت هذه السياسة الرحيمة إذ دخلت قريش فى دين الله. وكان لها فى الفتوحات الإسلامية نصيب كبير، وجهاد مبرور.

إلى غير ذلك من تلكم الأمثلة التى يفيض بها تاريخ الرسول ﷺ والتى هى المنهج الأقوم لدعاة الإصلاح فى كل زمان ومكان.

الوفـــاء بالعهـــد

كان الوفاء الكامل شأن الرسول الكريم فى جميع مواقفه فلقد عقد مع اليهود عهدا بعد الهجرة وظل وفيا بعده حتى بدأ اليهود بالغدر والخيانة فحاق بهم مكرهم، وعقد مع قريش عهدا يوم الحديبية فظل وفيا بعهده حتى بدأت قريش بالغدر وحاربت قبيلة خزاعة المحالفة للمسلمين فجزاهم الرسول على غدرهم وغزاهم فى دارهم[1]، فجاء نصر الله والفتح وخضعت قريش وأسلمت، وهكذا - صلوات الله وسلامه عليه - فى جميع مواقفه، حتى جعل الرسول ﷺ الغدر آية النفاق، فقال:

« آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

---

(١) ولذلك كان يجب علينا حرب الصهاينة لما اعتدوا على الفلسطينيين ، وأمريكا لما اعتدت على العراق وأفغانستان فهى دولة اسلامة ، وأما الدول العربية فبينها وبين مصر اتفاقيات دفاع مشترك ، ولكن الخوف قد شل عقول المسلمين والعرب وقيد أياديهم فلا حول ولا قوة إلا بالله وإلى الله المشتكى.

حلمـــه

وكان -عليه الصلاة والسلام- يعفو عمن ظلمه، ويعطى من حرمه، ويصل من قطعه.

وقال أنس -رضى الله عنه- : «خدمت النبى ﷺ عشر سنين فما قال لى: أف قط، ولا قال لشىء صنعته : لم صنعته؟ ولا لشىء تركته : لم تركته؟».

ولما كان يقسم الغنائم يوم خيبر جاءه رجل وقال : «اعدل يا رسول الله فقال الرسول : ويحك فمن يعدل إذا لم أعدل؟ فقد خبتُ إذا وخسرتُ إن كنت لا أعدل، فقام عمر وأراد أن يضرب عنقه فلم يرض الرسول بذلك وغفر للرجل زلته وخطيئته» لأنه كان لا يحب أن يقال إن محمداً يقتل أصحابه .

ولما كان يوم الفتح الأعظم وأمكن الله رسوله من قريش التى بالغت في إيذائه وسلكت كل سبيل للكيد له ونالت منه ومن المسلمين أنفسهم وأموالهم، وقف الرسول ﷺ وأعلن العفو العام عن قريش قائلا لهم : «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

وهكذا كان -صلوات الله عليه- يجزى بالإساءة إحسانا: وبالظلم والعدوان عفوا، وإن له الخلق الكريم الذى يسمو على السمو نفسه وصدق الله العظيم حيث وصفه بقوله تعالى :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ [القلم].

جـــوده

روى عن أنس بن مالك -رضى الله عنه- أن رجلا سأل رسول الله ﷺ فأعطاه غنما بين جبلين. فرجع الرجل إلى قومه وقال : أسلموا فإن محمداً يعطى عطاء من لا يخشى الفقر، وحمل إليه تسعون ألف درهم فوضعت على

حصير ثم قام إليها يقسمها فما رد سائلا حتى فرغ منها فجاءه رجل وسأله فقال : ما عندى شىء ولكن ابتع على (اشتر على حسابى) فإذا جاءنا شىء قضيناه، فقال عمر: ما كلفك الله مالا تقدر عليه. فكره النبى ذلك فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أنفق ولا تخش من ذى العرش إقلالا فتبسم ﷺ وعرف البشر فى وجهه وقال : (بهذا أمرت) إلى غير ذلك من الروايات الكثيرة الثابتة عن الرسول الكريم وهى تنطق كلها بأنه أجود الناس، وكان أجود بالخير من الريح المرسلة والسحب الهاطلة .

زهـــده

كان رسول الله ﷺ يضع أمامه قول الله تعالى :

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الـــدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٣١) ﴾ [طه].

فكان ينظر إلى الدنيا على أنها طريق وممر لا على أنها غاية ومستقر، وحسبك ما روى عن عائشة من أنها هى وزوجات الرسول كن يبصرن الهلال ثم الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة فى شهرين وما يوقد فى بيوت رسول الله نار، وأنهن كن يعشن الأمد الطويل على الأسودين : التمر والماء ولو أراد الرسول المال لوجده بين يديه ولو شاء كنوز الأرض لأقبلت مسرعة إليه، ولكنه زهد فى متاع الحياة الزائل وزخرفها الحائل ليضرب المثل الأعلى أمام القرون والأجيال فى الصبر على البأساء والرضاء بالقضاء ، فإنه كانت له خمس الغنائم . وقد خيره الله تعالى بين أن يكون نبيا ملكا أو نبيا عبدا فاختار العبودية لله تعالى وقال : بل نبيا عبدا أشبع يوما فأشكر وأجوع يوما فأصبر.

وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله أولا وآخرا .

الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس